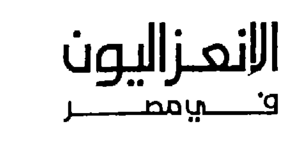
رجاء النقاش

الانعزاليون في مصر

رد على لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين




الانعزاليون
في مصر

دار المريخ للنشر

بســــــم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٤٠٧ هـ = ١٩٨٨ م

مقدمـــــــة

هذا الكتاب هو مجموعة من المقالات كتبتها في الفترة الممتدة من ٢١ إبريل « نيسان » ، إلى ١٣ يوليو « تموز » ١٩٧٨ ، وقد نشرتها جميعاً في مجلة « المصور » . وهذه المقالات كلها هي رد على الحملة التي أثيرت ضد « عروبة مصر » وضد « القومية العربية » ، وقد بدأت هذه الحملة بمقال كتبه توفيق الحكيم في ٣ مارس « آذار » سنة ١٩٧٨ بجريدة الأهرام تحت عنوان « الحياد » دعا فيه إلى أن تنفض مصر يدها من الصراع العربي والصراع العالمي معاً ، وتهتم بشئونها الخاصة حتى تتمكن من حل مشاكلها التي تراكمت في السنوات الأخيرة ، وأصبحت من أعصى المشاكل التي تواجهها الأمم والشعوب ، وقد أيده في دعوته الدكتور حسين فوزي ، ثم دخل الميدان كاتب كبير ثالث هو الدكتور لويس عوض فنشر في الأهرام ثلاث مقالات بتاريخ ٧ إبريل « نيسان » ١٩٧٨ و ٢٠ إبريل « نيسان » ١٩٧٨ ، و ١١ مايو « أيار » ١٩٧٨ ، وفي هذه المقالات الثلاث الطويلة أثار الدكتور لويس قضايا جديدة تتعلق بعروبة مصر التي يعارضها ، وبالقومية العربية التي ينكرها ،

وسرعان ماأصبح الدكتور لويس عوض الفارس الأول في المعركة ضد عروبة مصر وضد القومية العربية .

والمقالات التي يضمها هذا الكتاب هي رد على ما أثاره الكتاب الكبار الثلاثة لويس عوض وتوفيق الحكيم وحسين فوزي ، وهي أيضاً رد على بعض الذين دخلوا ميدان المعركة بصورة أو بأخرى ، وكان لهم فيها رأي ووجهة نظر .

وهـذا الكتاب ـ بما يضمه من مقالات ـ يقوم في أساسه على الدفاع عن عروبة مصر وعن القومية العربية ، وقد حاولت بقدر ما أستـطيع من الجهـد أن أجعـل المنـاقشـة موضوعية وهادئة ، فالمفكرون الذين يتصدى لهم هذا الكتاب وعلى رأسهم : لويس عوض وتوفيق الحكيم وحسين فوزي ، هم من كبار مفكري الأمة العربية في هذا العصر ، وهم أصحاب مكانة ، ولهم على الرأي العام العربي تأثير كبير ، أما القضية المطروحة فهي الأخرى قضية أساسية وخطيرة ، تتصل بمصير مصر ومستقبلها ، ونوع العلاقة التي يمكن أن تقوم بينها وبين سائر أبناء الأمة العربية في الحاضر والمستقبـل ، ومن أجل هذا كله ، حرصت كل الحرص على أن يكون الحوار والرد والمناقشة قائمة كلها على الحقيقة العلمية والنظرة العقلية الواضحة ، أملاً في الوصول إلى نتائج يمكن أن يكون لها جدواهـا في إزاحة الضباب الفكري الذي يحيط بالنفس العربية والعقـل العـربي ، في هذه المرحلة الصعبة من تاريخنا المعاصر ، ولايمكن أن يكون لدينا أمل في الوصول إلى شيء من هذا كله إلا

إذا التـزمنـا بقـدر كبير من الموضوعية والهدوء ، والمنهج العلمي السـليم ، بعيداً عن التشنـج والهجـوم الشخصي ، وتبـادل الاتهـامـات ، والبحث في النـوايا والمصـالح الخاصة ، بدلاً من البحث في الآراء والأفكار المطروحة .

هذا هو ماحـرصت عليه في هذا الكتاب ، فالمفكرون الذين أناقشهم هنا هم موضع احترامي وتقديري ، ولكنني أختلف معهم اختـلافـاً واسعـاً في الرأي والتفكير ، وهذا الاختلاف هو الذي حاولت هنا أن أشرحه وأعرضه ، مستنداً إلى ماوصل إليه جهدي من أدلة علمية متعددة ، تنبع كلها من إيمان عقلي ووجداني عميق بالقومية العربية ، ووحدة الوطن العربي ، وبأن مصر عربية ، وأنها جزء لايتجزأ من الوطن العربي الواحد الكبير .

وقـد أبقيت هذه الفصول المختلفة لهذا الكتاب على صورتها الأولى عند نشرها متفرقة في مجلة « المصور » ، ولم أضف إليها إلا بعض إضافات جزئية . ضاق المجال عنها عند نشر هذه الفصول مسلسلة في المصور .

وأخيراً . . أرجو أن يكون في هذا الكتاب مايساعد على توضيح بعض الجوانب في هذه القضية العزيزة ، قضية مصر والعروبة ، وأرجـو أن يكـون فيه رد على ذلـك الفكـر الـذي أسميه بالفكر

الانعزالي ، والذي يدعو إلى عزلة مصر عن العرب ، والذي أرى فيه أكبر الخطر على مصر ، وعلى أبنائها ومستقبلها ، وعلى العرب أجمعين .

رجاء النقاش

القوميـــة العربيـــة والنازيـــة

كتب الدكتور لويس عوض في عدد الأهرام الصادر يوم الجمعة ٧ إبـريل « نيسـان » ١٩٧٨ مقـالاً هامـاً بعنـوان « الأسـاطـير السياسية » ، وفي هذا المقال أثار الكاتب الكبير عدداً من القضايا الأساسية ، من أهمها ماجاء في قوله :

« إن أسـطورة الدعوة الانعزالية لاتقل شططاً عن الدعوة إلى الـوحـدة الانـدمـاجية الكـبرى القـائمة على العروبة العرقية أو العنصرية الملتهمـة لكـافـة مافي المنـطقة من قوميات ، فالعروبة العـرقية لون من ألـوان النازية » . وهكذا يربط الدكتور لويس عوض بين دعوة القومية العربية التي تتردد في وطننا العربي ، منذ أواخر القرن الماضي ، وبين الدعوات « العرقية والعنصرية » ويرى أن هذه العروبة العرقية ـ كما يقول ـ هي « لون من ألوان النازية » .

هذا القـول المحـدد الـواضح ، لم يقدم عليه الدكتور لويس عوض أي دليل علمي أو برهان من براهين العقل ، ومن حقنا أن نتساءل :

من أين جاء الدكتور لويس بدعوى التشابه بين النازية والفكرة القومية العربية ؟ إنني لاأعرف إطلاقاً كاتباً أو مفكراً ، له قيمة من دعاة القومية العربية ، كتب مايمكننا أن نستنتج منه أن القومية العربية تشبه النازية في أي مبدأ من مبادئها ، وليسمح لي الدكتور لويس عوض أن أطالبه بتقديم نص واحد لمفكر قومي عربي كبير يمكننا أن نجد فيه نموذجاً لأى شبه بين ماينادي به دعاة القومية العربية وبين مايقوله النازيون . والغريب هنا أن الذين قدموا ـ في وطننا العربي ـ أفكاراً مستوحاة من الفكر النازي ليسوا هم دعاة القومية العربية والوحدة ، بل هم دعاة الإقليمية الضيقة ، فلقد كان حزب « مصر الفتاة » في بداياته الأولى ، في الثلاثينات ، يتشبه في الفكر والسلوك بالحزب النازي ، وكان يتخذ لنفسه شعاراً هو : « مصر فوق الجميع » تماماً مثل الشعار النازي : « ألمانيا فوق الجميع » ولو راجعنا الكتابات الأولى لزعيم الحزب « أحمد حسين » فسوف نجد ملامح الفكر النازى واضحة في هذه الكتابات ، وسوف نجد أنه ألف كتاباً بعنوان « إيماني » مقلداً بذلك كتاب « هتلر » الشهير « كفاحي » ، وقد غير « أحمد حسين » الكثير من أفكاره في المراحل التالية من عمله السياسي ، وأصبح من دعاة العروبة والمدافعين عن الوحدة العربية ، ولكن أفكار أحمد حسين في المراحل الأولى من حياته السياسية هو وحزبه « مصر الفتاة » كانت كلها أفكاراً متأثرة بالنازية ، ونفس الشيء نجده عند « أنطون سعادة » وحزبه المعروف باسم « الحزب السوري القومي » ، فقد كانت أفكار هذا الحزب عند نشأته مرتبطة أشد

الارتباط بالأفكار النازية ، ولم يكن هذا الحزب عربيا في اتجاهه ، ولامؤمناً بالقومية العربية ، وكان على العكس حزباً إقليمياً ينكر العروبة والقومية العربية أشد الانكار .

نعود إلى دعاة القومية العربية لنجد أن هناك إجماعاً أو شبه إجماع فيما بينهم على التعريف البسيط الواضح الذي يقدمه ساطع الحصري للعرب والعروبة حيث يقول :

« إن كل من ينتسب إلى البلاد العربية ، ويتكلم اللغة العربية ، هو عربي ، مهما كان اسم الدولة التي يحمل جنسيتها بصورة رسمية ، ومهما كانت الديانة التي يدين بها ، والمذهب الذي ينتمي إليه ، ومهما كان أصله ونسبه وتاريخ حياة أسرته . . فهو عربي ، والعروبة ليست خاصة بأبناء الجزيرة العربية ، ولامختصة بالمسلمين وحدهم ، بل إنها تشمل كل من ينتسب إلى البلاد العربية ، ويتكلم باللغة العربية ، سواء كان مصرياً أو كويتياً ، أو مراكشياً ، وسواء كان مسلماً أو مسيحياً ، وسواء كان سنياً أو جعفرياً « شيعياً » أو درزياً ، وسواء كان كاثوليكيا أو ارثوذكسياً أو بروتستانتياً ، فهو من أبناء العروبة مادام ينتسب إلى البلاد العربية ويتكلم العربية »[1] .

---

١ ـ ساطع الحصري ـ العروبة أولاً ـ الطبعة الخامسة ـ ص ١٢ .

هذا هو التعريف البسيط الواضح للعرب والعروبة عند دعاة القومية العربية ، فأين ، يادكتور لويس ، التشابه بين هذا المفهوم للعروبة وبين مفهوم النازية للأمة والقومية ؟ .

إن النازية تقوم على أسس رئيسة محددة ، أولها أن الدولة هي « تنظيم عنصري » بمعنى أن الدولة النازية لاتضم إلا « العنصر الآري الجرماني » وترفض ماعدا ذلك من العناصر . فالزنوج مرفوضون في هذه الدولة ، وأي عناصر من أصل سامي مثل اليهود مرفوضون أيضاً ، كما أن الزواج في الدولة النازية غير مسموح به إلا بين من هم من العنصر الاري الرفيع ، فلا يجوز الزواج بين الآريين ، من أبناء ألمانيا العظمى ، وبين أي مواطن أو مواطنة من أي عنصر غير آري . ومن ناحية أخرى ، فإن النازية قد قامت على التوسع ، حيث كانت تؤمن إيماناً مطلقاً بحق الألمان في السيطرة على مزيد من الأرض ، حتى لو كان ذلك على حساب الآخرين ، أو كما كان هتلر يقول : « علينا أن ننال بالسيف الألماني التربة للمحراث الألماني » أو كما قال أيضاً : « لا يمكن لأي شعب أن يثق من حرية بقائه ووجوده إلا عن طريق الحصول على فسحة واسعة من الأرض . وعلينا ، دون اكتراث بالتقاليد ، أن نجد الشجاعة لتجميع شعبنا ، وحشد قواتنا ، للتقدم على الطريق الذي سيقودنا من مجالنا الحيوي الراهن المحدود إلى أراض وتربة جديدتين ، وعلينا أن نجاهد لإزالة عدم التناسب القائم بين عدد سكان بلادنا وبين مساحة منطقتنا ، ناظرين إلى هذه المساحة

الجديدة بوصفها مصدر الغذاء لنا ، ومصدر قوتنا ، وعلينا أن نتمسك بهدفنا في إصرار وعناد ، وأن نؤمن للشعب الأرض والتربة اللتين يستحقهما » [1]، وقد اشترط هتلر أن يكون هذا العدد الجديد للألمان ضمن حدود ألمانيا السياسية والجغرافية ، بمعنى أن تتوسع ألمانيا في أراضٍ غير أراضيها ، وأن تضم مساحات جديدة تملكها بلاد أخرى ، وشعوب مختلفة ، كل ذلك ـ كما تقول النازية ـ ينبغي أن يتم بحق واحد هو أن « ألمانيا فوق الجميع وأفضل من الجميع » .

إذا نظرنا بعد ذلك إلى حركة القومية العربية منذ ظهورها إلى اليوم فسوف نجد أنها تقف على النقيض تماماً من النازية ، فمن ناحية الموقف « العنصري » لم يطالب أحد من المؤمنين بالقومية العربية بإبعاد العناصر غير العربية ـ من ناحية الأصل والدم ـ عن المجتمع العربي ، فالوطن العربي يضم الكردي والبربري والأرمني والزنجي وذوي الأصول التركية والشركسية والفارسية ، ومع ذلك لم تظهر عند مفكري القومية العربية دعوة نظرية أو عملية للقضاء على هذه العناصر أو حرمانها من حقوقها الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية ، بينما رفضت النازية العناصر غير الآرية ، واضطهدتها اضطهاداً كاملاً ، واعتبرتها غير جديرة بالحياة ،

---

١ ـ تاريخ ألمانيا الهتلرية ـ وليام شيرر ـ ترجمة خيري حماد ـ الجزء الأول ص ١٦٦ ـ الطبعة الأولى .

وابتلعت النازية أراضي الغير بالقوة كما حدث عندما اجتاحت قوات ألمانيا النازية أراضي النمسا وبولندا ورومانيا وروسيا وفرنسا وغيرها ، واعتبرت السيادة على معظمها حقاً لها ، على أساس نظرية التفوق الذى يتميز به العنصر الألماني على غيره من الشعوب والأجناس . فأين وجه الشبه هنا بين حركة القومية العربية وبين الحركة النازية ؟ ومن أين جاء الدكتور لويس عوض بوصف « العرقية » أو « العنصرية » وإضافته إلى دعوة القومية العربية ؟ .

إننا نجد العكس تماماً هو الصحيح ، فحركة القومية العربية تعتمد على مايمكن أن نسميه بإلهام تاريخي وحضاري شديد النقاء ، فالحضارة العربية قد استوعبت في عصور ازدهارها أبناء الشعوب غير العربية استيعاباً كاملاً ، وذلك دون أن تضيق بهم أو ترفضهم ، أو تبني أي نظرية من النظريات التي يمكن أن تعوق اندماج « غير العرب » في الحضارة العربية أو المجتمع العربي . لقد اختلط الفرس والترك والأكراد وغيرهم من الشعوب بالعرب ، وعاشوا معهم في أمان تام وتعاون كامل إلا في لحظات تاريخية محدودة ، حيث وقع الصدام والصراع ، لأسباب سياسية مؤقتة ، وليس لأسباب عنصرية أو عرقية ، مثلما حدث في الفترة الأولى من العصر الأموي الذي كان يرفع العرب ـ من ناحية الدم ـ على غيرهم من أبناء الشعوب الأخرى .. ولقد كان هذا التعاون بين الشعوب المتعددة ، في ظل الحضارة العربية ، يستوحي المبدأ الإسلامي الراقي الذي أخذ به العرب في معظم مراحل تاريخهم ،

وهو المبدأ القائل بأنه « لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ، بل إن هناك قيادات تاريخية كانت تمثل مظهراً فذاً من مظاهر الحركة نحو الوحدة العربية ، وهذه القيادات لم تكن من أصل عربي ، ولكنها انتمت إلى العرب بالحياة المشتركة والمصلحة المشتركة ، والإحساس بوحدة المصير التاريخي ، وقد دافعت هذه القيادات عن العرب بحماس وإخلاص . والنموذجان التاريخيان الواضحان لذلك هما : صلاح الدين الأيوبي ، الذي تصدى بكل قوة للمحاولات الأوروبية لتمزيق البلاد العربية والاستيلاء عليها فيما سمي « بالحملات الصليبية » ، وكان صلاح الدين من أصل كردي ، كما هو معروف . أما النموذج الثاني فهو « محمد علي » الذي كان من أصل ألباني ، ومع ذلك فقد آمن في فترة حكمه « ١٨٠٥ ـ ١٨٤٩ » بوحدة العالم العربي ، وقام عن طريق ابنه القائد العسكري النابغ « ابراهيم باشا » بتوحيد معظم بلاد العرب تحت راية واحدة ، وكان ابراهيم ، الذي حارب وخاض المعارك من أجل تجميع العالم العربي في دولة واحدة ، يقول :

« ماأنا تركي بل أنا ابن مصر ، إن شمسها قد غيرت دمي وجعلتني عربياً قحّاً » .

وإذا حاولنا بعد ذلك ، أن ننتقل من المجال السياسي إل المجال الحضاري ، فسوف نجد أن الكثيرين ممن ساهموا في تكوين الثقافة العربية قديماً وحديثاً ، ليسوا من أصول عربية ، فقد كان أبو نواس

وبشار وابن الرومي وأحمد شوقي شعراء بارزين في الأدب العربي ، وكانوا من أصول فارسية أو يونانية أو تركية ، وكان ابن المقفع والبيروني وغيرهما من عباقرة الثقافة العربية من أصول غير عربية .

هذه كلها حقائق تعيش في ضمير كل من يؤمن بالقومية العربية ، وينادي بالوحدة العربية ، فلا أحد يدعو إلى مثل مادعت إليه النازية من سيطرة الجنس العربي على غيره من الأجناس التي تعيش في الوطن العربي ، ولايوجد داعية واحد له قيمته من دعاة العروبة ينادي بإقامة الدولة أو المجتمع على أساس عنصري ، أو ينادي بتحريم الزواج بين العرب ، وغيرهم من ذوي الأصول غير العربية ، أو إبادة الذين هم من أصول غير عربية لصالح الجنس العربي والدم العربي .

أما بالنسبة للأديان ، فإن الوطن العربي يضم الأديان الثلاثة الكبرى وهي الإسلام والمسيحية واليهودية ، والتعايش الطبيعي الخالي من العقد المتعصبة قائم بين المسلمين والمسيحيين . باستثناء تلك الموجات العابرة من الصراع الطائفي التي تنفجر في الوطن العربي بين الحين والحين ، والتي يتضح دائماً أنها من تحريك الأيدي الأجنبية المعادية للعرب ، وقد كان هذا التعايش قائماً بين المسلمين والمسيحيين واليهود قبل إقامة دولة اسرائيل سنة ١٩٤٨ في سائر أنحاء الوطن العربي ، باستثناء فلسطين ، حيث انفجرت الصراعات بين العرب واليهود منذ العشرينات ، وبعد أن اكتشف

العرب نوايا اليهود العدوانية . لقد كان لليهود وجود ملموس في مصر والعـراق والمغـرب واليمن والشام ، ولم يكن هناك مايعوق انتـمـاءهم لمجتمعـاتهم العـربية إلا نزعتهم الكـامنـة للانفصـال والسيطرة ، وتكوين دولة خاصة بهم ، وقد وصل تعداد اليهود في مصر إلى ثلاثـمـائـة ألف كانـوا يعيشون فيها حتى سنة ١٩٤٨ ، ووصلوا في مصر أيضـاً في العصر الحديث إلى منصب الوزارة ، حيث تولى « يوسف قطاوي باشا » وزارة المالية والمواصلات سنة مابين سنتي ١٩٢٤ و ١٩٢٦ ، وكان قطاوي من كبار الشخصيات اليهودية في مصر ، وكان من كبار الأغنياء ورجال الأعمال في ذلك العصر ، وقـد انـدمج اليهود كذلك في الحركة الثقافية والفكرية والفنية في مصر دون عائق ، فكـان داود حسني ، وهو يهودي ، أحد كبار الموسيقيين العرب المصريين ، ويقال إن يعقوب صنوع ، مؤسس فن المسرح في مصر ، هو أيضـاً من أصل يهودي ، وكان « ناحـوم حاييم » حاخام اليهود في مصر ، عضواً في مجمع اللغة العربية عند إنشائه لأول مرة ، وكان عدد أعضائه حينذاك عشرين عضـواً ، وكـان بالإمكان أن يستمر الأمر على هذه الصورة بين اليهـود والعـرب ، لولا نزعـة اليهـود المتـأصلة فيهم للانفصـال والاعتزال والتميز .

إن أصحاب الدعوة إلى القومية العربية لم يفكروا في أن يكونوا عنصريين على الإطلاق ، أو في أن يقيموا مجتمعهم العربي المنشود على أســاس الـتـخـلص من أي عنصر غير عربي ، بل إن من

الملاحظات الجديرة بالتأمل أن عدداً من كبار المفكرين المسيحيين العرب ، كانوا على رأس الدعاة إلى العروبة والقومية العربية مثل : بطرس البستـاني وناصيف اليازجي وميشيل عفلق ، وقد ترددت الدعوة العربية في مصر على لسان زعيم سياسي كبير من أقباط مصر هو مكرم عبيد ، وسوف نتعرض لدور المسيحيين في حركة القومية العربية في فصل آخر من فصول هذه الدراسة .

نأتي بعد ذلك للفكرة الثانية التي اعتمدت عليها النازية بعد الفكـرة العنصرية ، وهذه الفكرة هي فكرة التوسع على حساب الآخرين ، فالنازية كانت ترى في ذلك التوسع حقاً من حقوقها المقدسة ، ولذلك اجتاحت الجيوش النازية البلاد المحيطة بها في قسوة وعنف كما هو معروف ، فهل قامت دعوة القومية العربية على أساس التوسع والمناداة بالسيطرة ـ مثلاً ـ على إيران أو على تركيا أو على الهنـد ؟ . . إن دعـوة القـومية العربية تنادي بتوحيد الوطن العربي ، وجمع شمله ، وقد ضاعت أجزاء من الوطن العربي مثل الاسكندرونة التي اقتطعتها تركيا من سوريا وضمتها إليها ، ومثل الجـزء الـذي انتـزعتـه « اسرائيل » من فلسطين ، وأقامت فوقه دولتهـا ، ودعـاة القومية العربية لا يريدون الانتظار حتى تضيع أجـزاء أخرى من بلادهم ، وهم يحسون بما في الأوضاع العربية الراهنة من تمزق رهيب يهدد المصالح المشتركة العليا لكل عربي على هذه الأرض ، وإذا استبعـدنـا في هذه المـرحلة التاريخية امكانية التوحيد بين كل الحكومات العربية في حكومة واحدة ، وهو الأمل

الأكبر لكل من يؤمن بالقومية العربية . . إذا استبعدنا هذه الفكرة الآن بسبب التناقضات العسيرة والظروف الواقعية الصعبة القائمة في الوطن العربي ، فإننا لانستطيع أن نمنع أنفسنا من التساؤل : من الذي يقول إن شعب اليمن الشمالية يمثل « قومية » ، وشعب اليمن الجنوبية يمثل « قومية » أخرى ؟ ومن الذي يقول إن الكويت وقطر والبحرين وأبو ظبي ودبي والشارقة وأم القوين ورأس الخيمة تمثل كل منها قومية مختلفة عن الأخرى ؟ ومن الذي يسمح له ضميره العلمي والوطني والإنساني بأن يقول إن منطقة الشام تمثل قومية سورية ، وقومية لبنانية ، وقومية أردنية ، وقومية فلسطينية ؟ . . إننا هنا نتحدث ـ أولاً ـ وقبل كل شيء عن الشعوب لاعن الحكومات ، والشعوب في هذه البلاد واحدة ، والفوارق بينها غير قائمة إلا في حدود التنوع العادي بين مدينة وأخرى ، وبين منطقة ومنطقة .

ومن المعروف أن الدولة العربية السورية كانت منقسمة سنة ١٩٢٠ إلى خمس دول هي : دولة حلب ، ودولة شرق الأردن ، ودولة جبل الدروز ، ودولة دمشق ، ودولة جبل العلويين ، واستمرت هذه الدول بضع سنوات ثم تلاشت ، ولم يبق منها غير الأردن وسوريا ، وبعض آثار قليلة أخرى مثل ذلك الأثر الطريف الذي يحدثنا عنه ساطع الحصري ، والذي بقي من دولة حلب بعد انتهائها سنة ١٩٢٥ وهو « علم محفوظ في متحف وبضع ألواح رخامية حفر عليها اسم مرعي باشا رئيس دولة حلب »[1] .

١ ـ ساطع الحصري ـ العروبة أولاً ـ الطبعة الخامسة ـ ص ١٩ .

لقد كان من المحتمل أن تبقى هذه الدول إلى اليوم ، فهل كان من الممكن أن نقول حينئذ إن كل دولة من هذه الدول تمثل قومية خاصة : قومية حلبية ، وقومية درزية ، وقومية علوية ؟ . . . ذلك أمر غير مقبول نظرياً أو عملياً ، فالمنطقة تمثل وحدة ، هي جزء من وحدة قومية أكبر تشمل الوطن العربي كله ، ولامجال لتقسيم هذه المنطقة إلى أجزاء صغيرة إلا عندما يكون الهدف هو تدميرها وابتلاعها من جانب الاستعمار الذي أنشأ هذه التقسيمات تحت شعارات كاذبة ، مثل تلك الشعارات التي كان يرددها الجنرال الفرنسي « غورو » من أن هذه الدويلات قد قامت « نزولاً عند رغبة الأهالي » و « مراعاة من فرنسا لخصائص البلاد » . . . تلك كلها كانت ستاراً من الدخان لم يستطع أن يخفي الهدف الحقيقي من تقسيم سوريا سنة ١٩٢٠ إلى دويلات صغيرة ، وقد كان الهدف هو ابتلاع سوريا من جانب الاستعمار الأوروبي بسهولة ويسر ، ولم يكن الهدف من تمزيق سوريا ، كما قيل ، هو مراعاة رغبة الأهالي أو مراعاة « خصائص البلاد » .

والموقف الآن في الوطن العربي من وجهة نظر دعاة القومية العربية يشبه تماماً موقف ألمانيا وايطاليا في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر ، فقد كانت ألمانيا في القرن الثامن عشر مقسمة إلى أكثر من أربعمائة ولاية ، وكانت إيطاليا مقسمة إلى عديد من الولايات والحكومات المستقلة ، ولكن ألمانيا توحدت في القرن التاسع عشر ، وأصبحت دولة كبرى ، بعد أن كانت مجموعة من

الـدويلات ، وقـد تم ذلـك تحت قيادة « بسـمارك » « ١٨٧١ ومـابعـدها » وتوحدت إيطاليا كذلك منذ أكثر من قرن « حوالى ١٨٧٠ » تحت قيادة « كافور وغاربيالدي ومتزيني » ويحدثنا المؤرخ الانكليزي الكبـير « هربـرت فيشر » في كتابه « تاريخ أوروبا في العصر الحديث » فيقول عن الوحدة الإيطالية :

« انصرم الآن قرابة قرن منذ أن تمكنت شعوب إيطاليا المتعددة التي درجت برغم نطقهـا بلسـان واحـد ، وتوارثها ثقافة وتقاليد واحدة ، وسكناها بقعة واحدة من الأرض ، على أن ترمق بعضها بعضاً بعين من البغضاء وسوء الظن . . انصرم عليها قرن منذ أن تمكنت من الانضمام بعضها إلى بعض تحت حكم بيت « سافوي » وصمـد هذا الاتحـاد الـذي لاح في أعـوامـه الأولى مزعزعاً أمام عواصف الدهر وأنواء الأحداث ، وتضاءلت خلال تلك الحقبة الفروق الخاصة بين الشمال والجنوب ، وأزالت روح قوية ـ بل روح عنيفة ـ من الوطنية القومية ، الأهواء المحلية الكمينة ، والتعصب الاقليمي الدفين الذي ساد في العصور الماضية ، فلا يبغي إيطالي واحد أن يشاهد عودة تلك الأيام التي كانت فيها بلاده منقسمة منشقة بلا حول ولاقوة » [1] .

وهذا الكلام الذي يقوله « فيشر » عن الوحدة الإيطالية فيه أكثر

---

١ ـ فيشر ـ تاريخ أوروبا في العصر الحديث ـ تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ـ الطبعة السابعة ـ ص ٢٥٠

من مغزى لنا نحن العرب ، فقد تمت الوحدة الإيطالية رغم كل الخلافات والمشاكل التي وصلت إلى حد « البغضاء وسوء الظن » بين شعوب الولايات الإيطالية المختلفة ، ثم عندما قامت تلك الوحدة واستقرت لم يعد إيطالي واحد يمكن أن يفكر في عودة أيام الفرقة والانقسام ، كما أن أحداً ـ من الإيطاليين أو غيرهم ـ لا يفكر الآن أو يستطيع القول بأن وحدة إيطاليا أسطورة أو وهم أو دعوة عنصرية ، وهي التهم التي يلقيها الدكتور لويس عوض على دعوة القومية العربية والوحدة العربية .

وماحدث فى إيطاليا هو ماحدث في ألمانيا ، بل إن هناك نموذجاً حياً أمامنا هو « الولايات المتحدة الأمريكية » فهي تضم خمسين ولاية ؛ وتضم مايقرب من ثلاثمائة مليون نسمة ، أي مايساوي عدد سكان الوطن العربي مرتين تقريباً ، ومع ذلك حرصت الولايات الأمريكية على الاتحاد ، وكان بالإمكان أن تصبح هذه الولايات خمسين دولة منفصلة ، لكل منها علم وحكومة ، وقد كان مما يساعد على مثل هذا الانفصال أن الأصول القريبة التي لاتزيد كثيراً على مائتي سنة بالنسبة لمعظم سكان أمريكا هي أصول انكليزية ، وأصول فرنسية وأصول ألمانية ، وأصول إيطالية ، وأصول إفريقية زنجية ، وأصول عربية ، وغير ذلك من الأصول الأخرى العديدة ، والدولة الأمريكية المتحدة نفسها لايزيد عمرها كثيراً على مائتي سنة ، حيث نالت هذه الدولة استقلالها سنة ١٧٧٦ .

ذلك هو حال أمريكا وعمرها كدولة مستقلة مائتا عام ، وأصولها البشرية مختلفة متنوعة ، فلماذا يأتي الآن من يقول لنا نحن العرب ـ كما يقول الدكتور لويس عوض ـ إن الوحدة القومية العربية وهم وأسطورة ، ونحن نعيش في إطار من اللغة الواحدة ، والمنطقة الجغرافية الواحدة ، والثقافة الواحدة ، والمصلحة المشتركة منذ أكثر من ألف سنة ؟ !

إن القول بأن الوحدة العربية وهم وأسطورة هو قول لايصمد للمنطق والمناقشة المعتمدة على وقائع التاريخ .

وهكذا نجد أن لامجال على الإطلاق للمقارنة بين القومية العربية والنازية من الناحية النظرية ، فلا القومية العربية عنصرية تفضل الدم العربي وترفعه على غيره من الأجناس والدماء ، ولاهي حركة تجني على قوميات قائمة وتريد إلغاءها من الوجود ، ولاهي بعد ذلك كله حركة شاذة ، من حركات التاريخ ، فقد سبقتها حركات مشابهة فى إيطاليا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، وأخيراً فإن العروبة هي حركة قومية تدافع عن نفسها ولاتعتدي على غيرها ، إنها تتعرض لاعتداءات متواصلة تلحق بها ، وتخطف منها جزءاً من هنا ، وجزءاً من هناك ، يوماً بعد يوم .

فمن أين إذن جاءت فكرة التشابه بين القومية العربية والنازية عند الدكتور لويس عوض ، إذا لم يكن لهذا التشابه ـ كما هو واضح ـ أي أساس من الفكر النظري السليم ؟

هل يمكن أن تكون فكرة التشابه بين النازية والقومية العربية قد تسربت إلى ذهن الدكتور لويس من الواقع العملي للتجارب الوحدوية في الوطن العربي ؟ .

هناك في هذا المجال تجربتان وحدويتان مهمتان :

الأولى هي تجربة « محمد علي » في القرن الماضي ، وقد لجأت هذه التجربة إلى الأسلوب الوحيد الذي كان ممكناً في عصرها ، وهو الحرب ضد الاستعمار الذي كان مسيطراً على العالم العربي ، وهو الاستعمار التركي ، وماكان بالإمكان تحرير العالم العربي من الأتراك بغير السيف ، ولاأعرف أن استعمارا أمكن التخلص منه ـ على مر التاريخ ـ بالتفاهم معه ، والتوسل إليه ، وإيقاظ ضميره ، إن كان عند الاستعماريين ضمير من أي نوع ، فليدلنا الدكتور لويس على مثل هذا النوع من الاستعمار « الطيب » إن كان له وجود . ومن واجبنا في هذه الحالة ، أن نلوم « محمد علي » لأنه استخدم السيف ضد الأتراك ، بعد أن كان سيفه في خدمة الأتراك في بدايات حكمه ، وقد اكتشف « محمد علي » ـ بعد مساعدته لتركيا في كثير من معاركها المختلفة ـ أن الاتجاه الصحيح ينبغي أن يكون هو توحيد العرب وتخليصهم من الحكم التركي .

ومافعله « محمد علي » في محاولته لتوحيد العالم العربي بالسيف في القرن الماضي ، هو مافعله « بسمارك » في نفس القرن لتوحيد المانيا ، وقد ظلت ألمانيا بعد « بسمارك » موحدة إلى نهاية الحرب

العالمية الثانية ، فانقسمت ـ لأسباب سياسية ـ إلى دولتين : شرقية وغربية ، ولم تنقسم إلى أربعمائة دولة كما كانت قبل توحيدها ، وفي أوروبا أيضاً نجد أن « كافور » و « غاريبالدي » قد لجأ إلى أسلوب « محمد علي » لتوحيد ايطاليا ، فوحداها بالسيف ، ومازالت موحدة حتى الآن ، بل إن مصر نفسها قد تم توحيدها بالسيف في عهد « مينا ـ ٣٢٠٠ ق . م » ومازالت موحدة الى الآن ، ذلك كان منطق تلك العصور القديمة ، حتى القرن الماضي ، ولم يكن هناك سوى القوة عاملاً حاسماً لتحقيق وحدة الشعوب التي كان ينبغي أن تتوحد . ولايمكننا أن نقول إن « محمد علي » كان نازياً لأنه وحد العرب بالسيف ، وحارب بالسيف أيضاً ماكان من سيطرة تركية على البلاد العربية .

ولقد فشلت وحدة « محمد علي » نتيجة للتحالف الانكليزي التركي ، ونتيجة لرفض دول أوروبا الكبرى في ذلك الحين لقيام دولة عربية قوية في هذا العالم ، بل لقد أثبتت الوثائق التاريخية الحديثة ، أن اليهود كانوا من كبار المتآمرين على « محمد علي » لأنه منذ عصر « محمد علي » بدأ التمهيد لتوطين اليهود في فلسطين ، وقد بذل اليهود كل جهدهم لكي يتآمروا ضد « محمد علي » الذي كان يبسط سلطانه على الشام بما فيها فلسطين ، وبنهاية سلطان « محمد علي » في الشام بدأت فكرة توطين اليهود ـ تحت حماية الانكليز ـ تعمل عملها في أوروبا ، حتى أثمرت قيام دولة اسرائيل

بعد حوالى مائة سنة من وفاة « محمد على » سنة ١٨٤٩ .[1]

وقد تم إجبار « محمد علي » فى معاهدة لندن سنة ١٨٤١ على الانعزال في مصر وحدها ، وقد كانت هذه المعاهدة تهدف أساساً لضرب الاتجاه العربي « لمحمد علي » ، ولعزل مصر في حدودها الاقليمية الصغيرة الضيقة ، بعيداً عن مجالها الحضاري والتاريخي الواسع ، وهو الوطن العربي الكبير .

نأتي بعد ذلك إلى وحدة ١٩٥٨ بين مصر وسوريا ، وإذا كانت ظروف القرن الماضي قد فرضت إتمام الوحدة بالسيف ، فإن وحدة ١٩٥٨ كانت بعيدة كل البعد عن العنف ، والحرب ، بل إن من الحق أن نقول إن هذه الوحدة قد تم فرضها على مصر ، وكانت مصر تميل إلى التأني والتدرج في تحقيق هذه الوحدة . وعندما وقع الانفصال سنة ١٩٦١ لم يدخل الجيش المصري في حرب ضد الانفصاليين ، فما الذي يمكننا أن نجده مشابهاً للنازية في وحدة ١٩٥٨ ؟ .

لقد كان لوحدة ١٩٥٨ أخطاؤها التي لاشك فيها ، ولكن ليس من هذه الأخطاء على الإطلاق أنها كانت نازية النزعة فكراً أو

---

١ - أوروبا ومصير الشرق العربي - تأليف د . جوزف حجار ، ترجمة بطرس الحلاق وماجد نعمة - الفصل الثالث وعنوانه « عودة اليهود وتدويل القدس » ، وفيه شرح دقيق لمؤامرات اليهود ضد محمد علي .

تطبيقاً . ومعظم أخطاء وحدة ١٩٥٨ كانت تتركز في ضعف التنظيم السياسي المصاحب لهذه الحركة التوحيدية والمعبر عنها ، بحيث لم تجد هذه الوحدة تنظيماً سياسياً قوياً يحميها عندما تعرضت لمؤامرة الانفصال ، فقد اعتمدت وحدة ١٩٥٨ على الحماية الإدارية لها أكثر من اعتمادها على التنظيم السياسي الشعبي الواسع الدقيق ، وهذا التنظيم السياسي الدقيق هو الذي كان يمكن أن يخلق قوة شعبية سليمة مؤمنة أشد الإيمان بدورها في حماية مثل هذه الحركة الوحدوية .

وهكذا يبدو تشبيه الحركة القومية العربية بالنازية تشبيهاً لا أساس له من الفكر النظري لحركة القومية العربية ، إذا قارناه بالفكر النظري للنازية ، ولاأساس له من الواقع العملي لأي تجربة وحدوية إذا قارنا الحركة الوحدوية العربية بالحركة النازية في اندفاعها وتوسعها ، واستخدامها للعنف في سيطرتها على أرض ليست لها ، وشعوب غير الشعب الألماني ، وفي اضطهادها للأجناس البشرية التي ترى النازية أنها أقل من الجنس الآري . وهذه كلها آراء لم تطرحها حركة القومية العربية في فكرها النظري ، أو في واقعها العملي على الإطلاق .

القومية العربية والعنصرية

عاد الدكتور لويس عوض في مقاله المنشور بجريدة « الأهرام » في ٢٠ إبريل « نيسان » ١٩٧٨ ، إلى هجومه على القومية العربية وكرر اتهامه لها بأنها دعوة « عنصرية » أو « عرقية » على حد قوله ، وقد استند الدكتور لويس في التدليل على وجهة نظره إلى كتابين ، أولهما عن تاريخ العرب القديم ، ومؤلفه هو الدكتور « جواد علي » ، وليس « كاظم جواد » ، كما ذكر الدكتور لويس « فجواد علي » عالم باحث ، و « كاظم جواد » شاعر فنان وهما مختلفان ، والدكتور لويس لم يذكر لنا اسم كتاب الدكتور جواد علي ، وماكتبه الدكتور جواد عن تاريخ العرب القديم هو الموسوعة العلمية الضخمة التي تضم عشرة أجزاء ، والتي أسماها باسم : « المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام » .

ويزعم الدكتور لويس عوض أن الدكتور جواد قد نادى في كتابه برأي يقول : إن الحياة قد بدأت أساساً في الجزيرة العربية ، مما يجعل العرب أصل العالم كله . وإذا افترضنا أن الدكتور جواد قد

قال بهذا الرأي ، فليس في هذا الرأي ، مايمكن أن نستنتج منه أنـه رأي قائم على أساس عنصري يدعي « أن العرب يحق لهم السيادة بالقوة على الأجناس الانسانية الأخرى » . وكل مافي هذا الرأي - إذا صح أن الدكتور جواد قد قال به وهو زعم غير صحيح كما سنرى بعد قليل - إنما هو محاولة قد تكون خاطئة في الأسلوب والمنهج من جانب أحد المفكرين والعلماء لأن يعلي شأن أمته بتفسير علمي توصـل إليه اجتهـاده ، وهو رأي يراه غيره من العلماء في الشرق والغرب ، حيث يقال أحياناً ، إن الحياة قد بدأت في اليمن « عدن » ، واليمن جزء من الجزيرة العربية ، وفي كل شعب من الشعوب يوجد مفكرون من هذا النوع الذي يريد أن يرفع من شأن أمته ، وخاصة في لحظات الضعف الحضارية التي يمكن أن تمر بها أى أمـة من الأمم ، ونحن العـرب نمـر الآن بمـرحلة من هذه المراحل ولاشك . ومن حق أي مفكر أن يجتهد في رفع شأن أمته حتى يسترد المواطنون ثقتهم بأنفسهم وبأمتهم ، بكل ماقد يجمعه أو يتراءى له من الأدلـة العلمية والتـاريخية حسب قدرته ومستواه الفكـري ، وإذا لم يحاول المفكرون رفع الثقة بالنفس لدى أبناء شعبهم في لحظات الضعف والأزمـــة الحضـــارية ، فمتى يقـوم المفكرون بهذا الدور ؟ .

لقد كان من أهم الأدوار التي قام بها مصطفى كامل في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن هو هذا الدور بالتحديد ، حين كانت خطبـه تفيض بالمشـاعر الملتهبة في حب مصر وتمجيدها ،

والمنـاداة بأنها أفضـل بلد في العالم ، حيث كان يقول في وصف مصر ، وهي كلمات معروفة حتى في كتب المدارس :

« . . . ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها ، وأقرأوا صحف ماضيهـا وأسـألوا الزائرين لها من أطراف الأرض : هل خلق الله وطنـاً أعلى مقاماً وأسمى شأناً وأجمل طبيعة وأجل آثاراً وأغنى تربة وأصفى سماء وأعذب ماء وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟ . . اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد ان مصر جنة الدنيا ، وأن شعباً يسكنها لأكرم الشعوب إذا أعزها . . . » .

هذا ماكان يقوله مصطفى كامل ، وكان زعيماً مفكراً مثقفاً ، لأنـه كان يريد أن يرفع من ثقة شعب مصر بنفسه ، وبتاريخه ، وبقـدرتـه على الوقوف على قدميه بعد هزيمة الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ وسقـوط مصر في يد الاحتـلال الانكليزي ، وماصاحب ذلك كله من يأس أصاب نفوس الناس ، فهل كان مصطفى كامل نازياً عنصرياً عندما قام بهذه المحاولة المشروعة ؟ . . ربما استطاع عالم من العلماء ، له ذهن الدكتور لويس عوض وثقافته الواسعة ، أن يقف ليعترض على مصطفى كامل عندما كان يردد في خطبه أن مصر هي أحسن بلد في العالم ، وقد يستطيع هذا العالم المفكر أن يقـول : لايامصـطفى كامـل ، أنت عنصري متعصب ، وأنت تقـول ماينـاقض الواقع العملي عندما تنادي بأن مصر هي أجمل وأفضل بلد في الدنيا ، ولن يكون لمثل هذه الاتهامات الموجهة إلى

مصطفى كامل ، قيمة علمية بأي حال من الأحوال ، وسيظل مصطفى كامل « قوة حضارية » خلاقة في تاريخ مصر ، رغم مثل هذه الاعتراضات والمناقشات ، لأنه زعيم أدرك أن شعبه بحاجة إلى ماينقذه من اليأس والانهيار المعنوي ، ومن هنا كانت كلماته المليئة بالأمل والاعتزاز بالوطن .

ولنفرض أن الدكتور جواد علي قد أخطأ في اجتهاداته العلمية ، ووصل إلى نتائج غير صحيحة تدحضها أدلة قاطعة ، فهل معنى ذلك أن تصبح القومية العربية غلطة من غلطات التاريخ والحضارة ، وتصبح وهماً وأسطورة ؟ ثم من هو الدكتور جواد علي في نهاية الأمر ؟ هل هو حاكم من حكام العرب المعروفين بدعوتهم إلى القومية العربية ؟ هل هو سياسي من زعماء الحركة القومية العربية ؟ كلا ، إنه ليس حاكماً ، ولازعيماً سياسياً ، ولم يزعم لنفسه شيئاً من ذلك ، ولكنه كاتب كبير وعالم من العلماء العرب العظماء البارزين ، ولاأعلم إطلاقاً أن هناك من يعتبره زعيماً سياسياً ، أو مصدراً من المصادر المقدسة للحركة القومية العربية ، إنه باحث ومؤرخ قد يصيب أو يخطىء دون أن تكون أمته ملتزمة بكل حرف يقوله أو مسئولة عن كل كلمة يكتبها .

ومع ذلك فهناك حقيقة واضحة ، كان من الممكن أن تغنينا عن كل ماسبق من مناقشات ، هذه الحقيقة هي أن الدكتور جواد لم يقل بالرأي الذي نسبه إليه الدكتور لويس عوض ، وهو أن العرب

أصل العالم ، وأن الجزيرة العربية هي مهد البشرية الأول ، وقد آثرت أن أؤجل « كشف » هذه الحقيقة حتى أناقش الدكتور لويس عوض في سائر الاحتمالات ، إذا ماتصادف وظهر رأى من الآراء قد يبدو منه أن صاحبه يميل إلى أن ينسب للأمة العربية ماليس ثابتاً في العلم والتاريخ ، فليست مثل هذه الآراء كافية بحال من الأحوال لتعطي الدكتور لويس أو غيره من المفكرين حق اتهام القومية العربية بالعنصرية أو بالعرقية أو بالتعصب .

لقد عدت إلى موسوعة الدكتور « جواد علي » التي أشرت إليها في بداية هذا الفصل ، وهي « المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام » في أجزائها العشرة التي تزيد في مجملها على أكثر من خمسة آلاف صفحة ، وبحثت في الفصول المختلفة التي تحدث فيها الدكتور « جواد علي » في موسوعته العظيمة عن نشأة العرب ، ونشأة الحياة في الجزيرة العربية ، وحاولت أن أعثر على ماينسبه الدكتور لويس عوض إلى الدكتور « جواد علي » من رأي ، فلم أعثر على مثل هذا الرأي الذي يقول بأن العرب هم أصل العالم ، بل هو ينسب مثل هذا الرأي بطريقة علمية محايدة ودقيقة ، إلى بعض علماء العرب القدماء ، بل إن الدكتور « جواد علي » ينتقد هذه الآراء ، بعد تسجيلها ، ويعترض على منهجها ويشك في صحتها ودقتها حيث يقول عن هذه الآراء [1] :

---

١ ـ د . جواد علي ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، الجزء الأول ـ ص ١٤ ـ الطبعة الثانية بيروت ١٩٧٦

« وإذا ماسألتني عن معنى لفظة « عرب » عند علماء العربية ، فإني أقول لك : إن لعلماء العربية آراء في هذا المعنى ، تجدها مسطورة في كتب اللغة وفي المعجمات ، ولكنها كلها من نوع البحوث المألوفة المبنية على أقوال وآراء لاتعتمد على نصوص جاهلية ، ولاعلى دراسات عميقة مقارنة ، وضعت على الحدس والتخمين ، وبعد حيرة شديدة في إيجاد تعليل مقبول فقالوا ماقالوه مما هو مذكور في الموارد اللغوية المعروفة ، وفي طليعتها المعجمات وكتب الأدب ، وكل آرائهم في تفسير اللفظة وفي محاولة إيجاد أصلها ومعانيها هو إسلامي ، دُوِّن في الإسلام » .

ثم يقول الدكتور جواد علي بعد ذلك مباشرة : [1]

« وترى علماء العربية حيارى في تعيين من نطق بالعربية ، فبينما يذهبون إلى أن « يعرب » ، كان أول من أعرب في لسانه وتكلم بهذا اللسان العربي ، ثم يقولون : ولذلك عرف هذا اللسان باللسان العربي ، تراهم يجعلون العربية لسان أهل الجنة ولسان آدم ، أي أنهم يرجعون عهده إلى مبدأ الخليقة ، وقد كانت الخليقة قبل خلق « يعرب » بالطبع بزمان طويل ، ثم تراهم يقولون : أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه اسماعيل ، ألهم اسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً . وكان أول من نطق لسانه بالعربية المبينة ، وهو ابن أربع عشرة سنة . وإسماعيل هو جد العرب المستعربة على حد قولهم » .

---

٢ ـ المرجع السابق ـ ص ١٤

هذا هو ماكتبه الدكتور « جواد علي » ، وليس فيه على الإطلاق ذلك الرأي الذي نسبه إليه الدكتور لويس عوض ، فالدكتور جواد لم يقل أبداً إن العرب هم أصل العالم ، ولا إن الجزيرة العربية هي المهد الأول للبشرية ، وإنما عرض بأسلوب علمي سليم ودقيق لآراء المصادر العربية القديمة ، كما وجه النقد إلى هذه المصادر بمنتهى الوضوح والدقة شأن العلماء الذين يشعرون بمسئوليتهم العلمية الصحيحة .

والخطأ هنا هو خطأ الدكتور لويس عوض لأنه نسب إلى الدكتور جواد علي مالم يقله ، كما أخطأ في اسمه وخلط بين هذا الاسم واسم الشاعر « كاظم جواد » مما يدل على أن الدكتور لويس قد اعتمد على الذاكرة ، وكانت هذه الذاكرة في حالة لم يتمكن معها « الدكتور لويس » من التزام الدقة العلمية ، ونسبة الآراء بصورتها الصحيحة إلى أصحابها الحقيقيين .

ويشير الدكتور لويس بعد ذلك إلى كتاب آخر للدكتور « ناجي معروف » ويعتبر هذا الكتاب دليلاً جديداً على اتهامه للقومية العربية بأنها فكرة عنصرية نازية ، و « الدكتور لويس عوض » يلقي بهذا الاتهام دون أن يقدم الدليل على صحته . وحقيقة الأمر أنه اتهام غير صحيح ، بل بعيد كل البعد عن الصحة والصواب . فالدكتور « ناجي معروف » ، وهو أستاذ للحضارة العربية بجامعة بغداد ، له كتاب عنوانه « عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية في المشرق الإسلامي » وفى هذا الكتاب يحاول الدكتور

ناجي ، بأسلوب علمي رصين معتمد على الوثائق والمصادر الدقيقة ، أن يثبت الأصل العربي لعدد من عباقرة المسلمين المنسوبين إلى شعوب عربية أخرى غير الشعب العربي ، والكتاب الذي يقدمه « الدكتور ناجي » أشبه بدائرة معارف علمية تكشف عن أنساب العلماء العرب ، والقبائل التي خرجوا منها ، وهذا الجهد العلمي « للدكتور ناجي معروف » لايعدو أن يكون اجتهاداً يخضع للخطأ والصواب مثله مثل أي اجتهاد علمي آخر ، وهو اجتهاد يصدر عن عالم يحب أمته وبلاده ، ويريد لها أن تكون أمة عظيمة وأصيلة في حركتها العلمية وتقدمها الحضاري والفكري . وماكان « ناجي معروف » في آخر الأمر إلا أحد علمائنا ، أفئن أخطأ ، أو اجتهد ولم يصل إلى نتيجة صحيحة ، قلنا كما يقول الدكتور لويس عوض : انظروا إلى القومية العربية . . إنها قومية عنصرية نازية ، تتعالى على غيرها من الأجناس والشعوب ؟ ! ذلك منطق لايستقيم مع العقل أو المنهج العلمي السليم .

ولو أن الدكتور لويس عوض تجاوز النظرة السريعة إلى عنوان كتاب الدكتور « ناجي معروف » وحاول أن يقرأ بعض صفحات هذا الكتاب القيم ، لأدرك الدكتور لويس ، أن « ناجي معروف » إنما يقدم فهماً إنسانياً عميقاً لفكرة القومية العربية ، ذلك أن العربي عنده إنما يكون عربياً « بالنسب » ويكون عربياً « بالولاء والانتماء للعرب » ، ويكون عربياً « باللغة والثقافة » ولم يقل « ناجي معروف » بأن العروبة هي فقط « عروبة الدم والعرق » بل قدم

مفهوما رحبا واسعا ، بعيدا كل البعد عن التعصب ، وهذا نص مايقوله الدكتور معروف في الصفحة ٣١ من كتابه عن « عروبة العلماء المنسوبين إلى البلدان الأعجمية في المشرق الإسلامي » :

« لو لم أكن عربي الأبوين لتمنيت أن أكون عربياً ، لأن من يطلع على ماقام به العرب من خدمات للإنسانية ، وللعلم والحضارة العالمية ، ليقف إجلالاً للعرب في عصورهم الزاهية وامبراطوريتهم الواسعة .

ولو لم أكن عربي الأبوين نسباً لوددت أن أكون عربياً بالولاء لأن المسلمين قديماً على اختلاف ألوانهم وأجناسهم قد انتسبوا إلى قبائل عربية ، وأسر عربية ؛ وأعلام من العرب رجالاً ونساء ، وأصبحوا منهم ، لايختلفون عنهم في حق ، ولاواجب . ولو لم أكن عربياً نسباً أو ولاء لتمنيت أن أكون عربياً بالثقافة ، ذلك لأن اللغة العربية ، والثقافة الإسلامية كوّنتا شعوباً وأجيالاً من الناس مازالت مخلصة للعرب ، تحبهم كأنفسهم أو أكثر حباً . . . » .

هذا مايقوله « الدكتور ناجي معروف » في كتابه الذي يتهمه الدكتور لويس بالعنصرية والتعصب ، فهل في هذا « المفهوم » للعروبة ، أي تعصب ، أو » اشتراط » لضرورة أن يكون العربى منتسباً « بالدم » إلى القبائل العربية القديمة ؟ . . إن المفهوم الذي يقدمه « الدكتور ناجي معروف » للعروبة مفهوم إنساني ، وليس مفهوماً عنصرياً متعصباً كما يقول الدكتور لويس عوض ،

الذى لم يقرأ من كتاب الدكتور ناجي معروف كما هو واضح سوى عنوانه ، واكتفى بذلك ليصدر حكمه الخاطىء ، على مافي الكتاب من رأي وجهد علميين .

كما أرجو أن نلاحظ التشابه القائم بين عبارة الدكتور ناجي معروف : « لو لم أكن عربي الأبوين لتمنيت أن أكون عربياً » وعبارة الزعيم المصري مصطفى كامل « لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً » . . فالعبارتان تمثلان ، ماأشرت إليه سابقاً ، من محاولة لتعميق ثقة الشعوب بنفسها في لحظات الأزمة والخطر ، وهو موقف مقبول ومطلوب من أي مفكر صادق ، يتمنى لأمته النهوض والتقدم ، والخلاص مما تعانيه من أزمات .

بقي أن نشير إلى أمر لم يلتفت إليه الدكتور لويس عوض على الإطلاق ، وقد كان باستطاعته ، أن يصل من خلاله إلى تفسير ظواهر كثيرة من تلك الظواهر التي شغلت عقله فيما يتصل بالقومية العربية ولم يجد لها تفسيراً غير العنصرية والنازية وما إلى ذلك من التهم غير الصحيحة ، هذا الأمر الذي لم يلتفت إليه الدكتور لويس عوض هو أن هناك في التاريخ العربي ظاهرة فريدة من نوعها ، هي ظاهرة « الشعوبية » وقد قامت « الشعوبية » في حركتها الأساسية ، على فكرة محددة هي الهجوم على العرب وتحقيرهم ، وتجريدهم من أي قيمة أو فضيلة إنسانية ، أو حضارية ، ورفع غيرهم من الأمم الأجنبية عليهم في مجالات

الثقافة والحضارة والسلوك ، بل في كل جانب آخر من جوانب الحياة ، وكان من الطبيعي أن يكون لمثل هذه الحركة رد فعل عند العرب ، وخاصة في المجتمعات العربية التي تعرضت أكثر من غيرها لهجمات الفكر الشعوبي مثل مجتمع « العراق » فقد عانت العراق معاناة شديدة من آثار الشعوبية منذ قيام الدولة العباسية على مساعدة الفرس . وبعض الأجناس الأخرى من غير العرب مثل الأتراك . وفي ظني أن العراق ما زالت شديدة الحساسية وأن العراق محاطة بقوميات أخرى يمكن أن تهب منها هذه الرياح الشعوبية في أي مرحلة من مراحل التاريخ ، فهناك على الحدود العراقية يوجد الفرس والأتراك وغيرهم ، مما أدى بعرب العراق إلى الإحساس بضرورة الدفاع عن عروبتهم ضد العناصر الأخرى التي تعمل على التقليل من شأن العرب ، وتحاول النيل من قيمتهم الفكرية والحضارية ، واللغة التي كتب بها العالمان العربيان العراقيان : « جواد علي » و « ناجي معروف » كتابيهما هي لغة تنبع من التصدي للشعوبية وبعض آثارها الباقية إلى اليوم ، فهي إذن لغة الدفاع واستعادة الثقة بالنفس ، وهي في نفس الوقت لغة البحث العلمي والاجتهاد في هذا البحث والالتزام بأصوله الصحيحة ، وليس في لغة هذين الكاتبين العالمين أي نغمة من نغمات التعالي أو العدوان أو الدعوة إلى نظرية تقول بتفوق العنصر العربي على غيره من العناصر ، ولامجال على الإطلاق إن يستنتج « الدكتور لويس عوض » من كلام الكاتبين العراقيين ماقام باستنتاجه من أنهما كتبا ماكتباه بلغة العنصرية العربية والنازية العربية على حد قول الدكتور لويس .

ولقـد كان الأجدر « بالدكتور لويس عوض » أن يفرق تفرقة كاملة بين « العـروبـة » بمعنـاهـا « القبـائـلي الجاهلي » ، وبين « العـروبـة » التي هذبهـا الإسلام ومنحها قوة إنسانية ، وأبعاداً حضـارية كبرى ساعـدتها على الامتداد والاندفاع خارج الجزيرة العربية ، وتكوين مانسميه الآن بالأمة العربية التي تمتد من الخليج إلى المحيط ، والتي يرفض الدكتور لويس ـ ويا للعجب والأسف ـ أن يعترف بوجودها وحقها في الوحدة والتكامل ، كشعب واحد ، مترابط في اللغة الواحدة ، والمصلحة الواحدة ، والتراث الواحد ، والمستقبل الواحد .

ومن الحق أن « محمـداً » « ص » قد قام أولاً بتوحيد الجزيرة العربية بقبائلها المتنافرة المتصارعة ، وهيأ شعبها الموحد للاندماج مع الشعـــوب الأخـرى ، والتـأثـر بهم والتـأثـير فيهم ، وهـذه « العروبة » التي تعيش إلى اليوم تختلف في جوهرها عن « عروبة الجاهلية » كل الاختلاف ، « إذا استثنينا اللغة العربية التي بقيت لنـــا من عصر ماقبـــل الإســـلام » . والـدكتـور يتهم مانسميه « بالعـروبـة الجـديدة » بما يمكن أن ينطبق على عروبة الجاهلية وحـدها ، حيث كان التعالى والتقاتل والتفاخر والعداء والاهتمام البالغ بالأنساب أساساً للحياة في ظل هذه العروبة الجاهلية التي ثار عليها الإسلام وحاربها أعنف الحرب وأقساها ، ولو أن الدكتور لويس عوض أخـذ بهذه التفرقة العلمية الضرورية ، بين عروبة الجاهلية وعروبة مابعد الإسلام ، لاستطاع أن يرى الفرق واضحاً

جلياً بين « العروبتين » ولتبين له أن مايلقيه الآن على العروبة من اتهامات قد ينطبق على عروبة قديمة تلاشت واندثرت ، ولم يعد لها أثر أو وجود ، باستثناء اللغة العربية والشعر العربي الجاهلي ، ولكن ماينطبق على هذه العروبة القديمة لاينطبق على عروبة مابعد الإسلام ، ولاعلى العروبة بالمعنى العصري الحديث .

ولو أن « الدكتور لويس عوض » ، أقام وزناً لهذه التفرقة بين « العروبتين » ، لحاول أن يلتمس المعنى الجديد للعروبة في مصادر نظرية رئيسية ، معروفة وميسورة ، فمن الثابت مثلاً أن النبى قال للعرب المسلمين في خطبة له ، وكان بهذا القول يدافع عن ثلاثة من أعلام الإسلام ليسوا من أصل عربي هم : بلال الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وصهيب الرومي . قال النبي بوضوح وفكر إنساني يعيش منذ ألف وأربعمائة سنة وسوف يعيش في المستقبل مع كل القيم الرفيعة :

« أيها الناس : الرب واحد ، والأب واحد ، وإن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي » . ذلك هو قول النبى الكريم ، وهو قول شديد الدقة ، وليس فيه مجال للغموض ، أو الالتباس ، على الإطلاق ، وإذا أردنا الوقوف أمام نماذج من كتابات المفكرين الإسلاميين الكبار الذين درسوا الفكر الإسلامى في أصفى ينابيعه ، فسوف نجد أمامنا نفس الروح الإسلامية التي

جاء بها محمد « ص » ، وأخذ الناس يتعلمونها جيلاً بعد جيل وأتوقف هنا أمام نص للمفكر الإسلامي العربي الجزائري الكبير « عبد الحميد بز باديس » « ١٨٨٩ - ١٩٤٠ » ، وفي هذا النص يقول ابن باديس :

« تكاد لاتخلص أمة من الأمم لعرق واحد ، وتكاد لاتكون أمة من الأمم لاتتكلم بلسان واحد ، فليس الذي يكون الأمة ويربط أجزاءها ، ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة ، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد » .

هذا هو قول عبد الحميد بن باديس الآتي لنا من قلب الجزائر ، و « بن باديس » هو إمام من أئمة الفكر العربي الإسلامي ، وإمام من أئمة الدعوة إلى القومية العربية ، فلماذا لم يقرأ الدكتور لويس عوض كتاباته ، ويدرس أفكاره وأفكار غيره من الدعاة الحقيقيين للعروبة ، والقومية العربية ، قبل أن يطرح علينا أفكاره عن العروبة والقومية العربية ؟ .

إنى أؤكد « للدكتور لويس عوض » أنه لن يحصل على نصّ جدّي واحد يؤيد دعواه . ودعنا بعد كل ذلك يادكتور لويس من اصطياد النصوص ، من كتاب هنا أو كتاب هناك ، واعذرني في استخدام لفظ « اصطياد » هذا ، فإني أطالب بالبحث في الأصول والجذور بدلاً من الفروع المتشعبة والتى يمكن أن نجد فيها ماقد لا يتفق مع الخط الرئيسي الجوهري الواضح لفكرة « القومية

العـربية » ، والآصـول والجـذور هي كتـابـات المفكرين والقادة السياسيين الـذين يمثلون حركة الوحدة العربية ، ويعبرون عن فكرة القومية العربية تعبيراً واضحاً دقيقاً ، والذين يمثلهم كاتب ومفكـر سياسي مثـل « ساطـع الحصري » ، وأنا اختار « ساطع الحصري » بالـذات ، وأؤكـد عليه لأنـه يعـبر عن فكرة القومية العربية تعبيراً واضحاً نقياً ، ولأنه ليس موضع خلافات أو منازعات سياسية هنا أو هناك .

الشعوبية بين الماضي والحاضر

من يكن سائلاً عن أصل دينهم
فإن دينهم أن يُقتل العرب

شاعر عربي قديم
يصف حركة الشعوبية

في القرون الثلاثة الأولى بعد الإسلام ظهرت حركة سياسية وفكرية خطيرة سميت باسم « الحركة الشعوبية » وجوهر هذه الحركة هو محاربة العرب ، ومحاولة القضاء على حضارتهم ونفوذهم السياسي .

وقد نشأت هذه الحركة أساساً بعد الإسلام بين بعض الشعوب التي انتصر عليها العرب ، وقوضوا أركان دولهم التي كانت مزدهرة مثل دولة الفرس ، ودولة الرومان .

وكان الفرس على وجه الخصوص هم أشد أنصار الحركة

الشعوبية المعادية للعرب قوة وعنفاً ، وذلك لأنهم شعروا أن دولتهم المتحضرة المزدهرة قد انهارت على يد العرب المسلمين ، وأنهم قد أصبحـوا أتباعاً للدولة العربية ، بعد أن كانوا سادة من سادات الدنيا ، في بلادهم وخارج بلادهم ، وكانوا يشعرون أن بلادهم تتميز بحضارة قديمة عريقة ، وأنها لذلك كله لايجوز أن تقبل هذا المصير الذي انتهت إليه على أيدي العرب ، بعد هزيمة الفرس في معركة القادسية .

وقـد بدأت بذور الحـركـة الشعوبية في وقت مبكر من تاريخ الإسـلام . حيث يرى كثير من المؤرخين أن مقتل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ، كان من تدبير هذه الحركة المعادية للعرب . ذلك أن الفرس بعد هزيمتهم العسكرية لجأوا إلى التآمر السري ، وكانت حركة الاغتيالات هي أول مظهر لهذه المؤامرة الشعوبية ، فقد قتل عمر بن الخطاب بيد « أبي لؤلؤة المجوسي » وقيل إن هذه الجريمة كانت من تدبير « الهرمزان » القائد العسكري للفرس ، وقـد أسره العرب بعد هزينة القادسية ، وكان من نتيجة مصرع عمر ، قتل « أبي لؤلؤة » و « الهرمزان » معاً ، عقاباً لهما على اغتيال الخليفة الإسلامي العظيم .

ويرى بعض العلماء والمؤرخين أن مقتل الخليفة الثالث « عثمان ابن عفان » كان من تدبير قوى عديدة على رأسها الحركة الشعوبية أيضاً ، حيث قام زعيم فارسي بالاشتراك في مؤامرة مقتل عثمان ،

وكـان هذا الـزعيم الفـارسي اسمـه « زازويه الفارسي » وكذلك اشتركت الحركة الشعوبية في مقتل « علي بن أبي طالب » ، وإن كان مقتل علي قد نسب إلى جماعة من الخوارج ، ويرى عدد من المؤرخـين أن الصحيح غير ذلك ، فالقاتل الحقيقي لعلي بن أبي طالب هو حركـة الشعـوبية ، أي حركـة العـداء للعرب ومحاولة تقويض دولتهم الناهضة الجديدة بعد الإسلام .

وبعد عصر الخلفاء الراشدين قامت الدولة الأموية ، وقد قامت هذه الدولة على فلسفة واحدة محددة هي : سيادة العنصر العربي على غيره من العناصر الأخرى التي دخلت الإسلام ، سواء كانت هذه العنـاصر الجديدة من الفرس ، أو من أهل الشام ، أو من المصريين ، وقد بالغ الأمويون في تطبيق هذه السياسة ، ووصلوا بها إلى أقصى حدودها ، وخرجوا بذلك على السياسة الإسلامية الصحيحة ، وهذه بعض الأخبار والوقائع التي ترويها كتب التاريخ والتي تكشف لنا عن هذه النزعة ، وهي نزعة لايمكن وصفها إلا بأنها نزعة « عنصرية » تجافي روح الإسلام مجافاة تامة :

١ ـ كان « الحجاج » يقوم « بوشم أيدي غير العرب بالمشراط » حتى يعـرف الجميع أنهم من غير العـرب ، وحتى يتميزوا تماماً فيعـاملهم الجميع على أنهم ـ في الـدولـة الأموية ـ مواطنون من الدرجة الثانية .

٢ ـ كان الزواج بين العرب و « الموالي » أي الذين لهم أصول

غير عربية ، مرفوضاً في العصر الأموي ، وقد حدث ـ كما يروي لنا الدكتور محمد نبيه حجاج في كتابه عن « الصراع بين العرب والعجم » ـ أن أحد الموالي خطب بنتاً عربية من « بني سليم » وتزوجها ، فلما ذاع الخبر وعلم به الوالي الأموي ، فرق بينه وبينها ، وألهب ظهره بالسياط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه ، وفي هذا الحادث قال أحد الشعراء المتعصبين :

فأي الحق أنصف للموالي
من اصهار العبيد إلى العبيد

ومعنى هذا ، أن « الموالي » من غير العرب ، كانوا في نظر الدولة الأموية عبيداً ، وهو موقف نابع من فلسفة الدولة الأموية ، وليس نابعاً من مبادىء الإسلام على الإطلاق ، وهو ردة مكشوفة إلى المواقف الجاهلية التى قضى عليها الاسلام ورفضها أشد الرفض

٣ ـ كان « الحجاج » أيضاً يرفض رفع الجزية عمن أسلم من الموالي ، رغم أن الإسلام ينص ، نصاً صريحاً لا شبهة فيه على أن المسلم لا يدفع الجزية أبداً ، مهما كان جنسه أو لونه ، ولكن « الحجاج » كان يبرر موقفه المتناقض مع المبادىء الإسلامية بقوله : « إن هؤلاء الموالي أسلموا لغرض ، ومن أسلم لغرض ففي قلبه مرض » .

٤ ـ وهذا الصراع بين المبادىء الإسلامية الصحيحة ، وبين الفلسفة العنصرية للدولة الأموية ، تكشفه أيضاً تلك القصة التي ترويها بعض كتب التاريخ عن الحسين بن علي ومعاوية ، وتقول هذه القصة ، كما جاء في كتاب « الدكتور محمد نبيه حجاج » الذي سبق ذكره :

« إن الحسين أعتق جارية ثم تزوجها ، فكتب إليه معاوية يقول : « من أمير المؤمنين معاوية ، إلى الحسين بن علي . أما بعد : فإنه قد بلغني أنك تزوجت جاريتك ، وتركت أكفاءك من قريش ، ممن نستحسنه للولد ، ونمجد به في الصهر ، فلا نفسك نظرت ، ولا لولدك أبقيت » ، فكتب إليه الحسين يقول : « أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، وتعييرك إياي بأني تزوجت مولاتي « أي جاريتي » ، وتركت أكفائي من قريش ، فليس فوق رسول الله منتهى في شرف ، ولا غاية في نسب ، وإنما كانت ـ أي هذه الجارية ـ ملك يميني ، خرجت من يدي بأمر التمست فيه ثواب الله تعالى ، ثم ارتجعتها على سنة نبيه ﷺ ، وقد رفع الله بالإسلام الخسيسة ، ووضع عنا به النقيصة ، فلا لوم على امرىء مسلم إلا في أمر مأثم ، وإنما اللوم لوم الجاهلين » .

ففى هذه القصة صراع واضح بين موقفين ، موقف يقوم على العصبية والدعوة إلى سيادة العرب على الأجناس الأخرى ، وهذا هو موقف معاوية والأمويين جميعاً باستثناء « عمر بن عبد

العزيز » ، وموقف آخر هو الموقف الإسلامي الصحيح ، وهو موقف الحسين الذي يرى أن الإسلام قد حقق المساواة بين سائر الأجناس ، وأنه « لافرق بين عربي ولاعجمي إلا بالتقوى » .

ويمكن أن تكون هذه القصة التي رويت عن الحسين ومعاوية موضوعة وغير ثابتة من الناحية التاريخية ، ولكن دلالة هذه القصة ، ولا شك أمر صحيح ، ولاجدال فيه .

فالثابت أن الأمويين في موقفهم السياسي من التعصب للعرب واضطهادهم لغيرهم من أجناس الدولة الإسلامية ، قد خرجوا على مبدأ من أعظم مبادىء الإسلام وهو « المساواة بين الناس » والمسلمين منهم خاصة ، ومن هذه الناحية ، كما يقول « أحمد أمين » : « لم يكن الحكم الأموي حكماً إسلامياً ، يُسوَّى فيه بين الناس ، ويكافأ فيه من أحسن ، عربياً كان أو مولى ، ويعاقب فيه من أجرم ، عربياً كان أو مولى . كانت تسود في هذا لعصر الأموي النزعة الجاهلية لا النزعة الإسلامية ، فكان الحق والباطل يختلفان باختلاف من صدر عنه العمل . فالعمل حق إذا صدر عن عربي من قبيلة ، وهو باطل ، إذا صدر عن مولى « غير عربي » ، أو عن عربي من قبيلة أخرى »

ومعنى كلام أحمد أمين ، وهو كلام علمي صحيح ، أن الأمويين لم يكونوا ـ فقط ـ يفرقون بين العرب وغير العرب ، بل كانوا يفرقون بين العرب والعرب حسب قبائلهم المختلفة ، حيث

تكـون قريش في مقـدمـة القبائل ، وهذا الموقف لايمثل القيمة الانسانية والحضارية العظمى ، التي خرج بها العرب إلى الدنيا بعد الإسلام ، فهو موقف يرفضه القرآن عندما يقول : « إنما المؤمنون إخوة » . وهو موقف يرفضه النبي ﷺ عندما يقول حديثه الشهير : « لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » . وهو موقف يرفضه عمر بن الخطاب الذي حارب التفرقة بين المسلمين على أساس الأجناس ، وحتى بعد أن طعنه أبو لؤلؤة المجوسي ، حذّر ـ وهو يموت ـ من أي انتقام من الفرس أو من غيرهم ، وشدد في طلب العدل بعيداً عن دوافع الثأر والانتقام ، وكان عمر يقول عن أحد الموالي الأتقياء من غير العرب : « لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته » .

ويحدثنا : « أحمد أمين » نقلاً عن ابن أبي حديد في كتاب « نهج البـلاغـة » أن « علياً بن أبي طالب كان لايفضـل شريفـاً على مشروف ، ولا عربياً على عجمي ، ولايصـانـع الـرؤساء وأمراء القبائل ، فكان هذا من « آكد » الأسباب ، في تقاعس العرب عنه . . » .

روى « المدائني » : « أن طائفة من أصحاب علي مشوا إليه ، فقالوا : ياأمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ، واستمل من تخاف خلافه من الناس ، وإنما قالوا له ذلك ، لما كان معاوية ، يصنع في المال ، فقال لهم : أتأمرونني أن أطلب النصر بالجور ؟ ! . . ورفض علي

بالطبع وجهة نظرهم ، وأقام سياسته على المساواة الصادقة الحقيقية بين المسلمين ، عرباً كانوا أو عجماً .

هذه هي السياسة الإسلامية العربية الصحيحة ، وقد كانت هذه السياسة قادرة لو أنها استمرت بعد عصر الخلفاء الراشدين ، بأن تصهر كل العناصر في المجتمع العربي الجديد ، في علاقات إنسانية وحضارية راقية ، وكانت كفيلة بأن تحارب مابقي في نفوس العرب من آثار الجاهلية ، ومابقي في نفوس العجم من آثار هزيمتهم على يد العرب في معركة القادسية وغيرها من المعارك ، ولكن الأمويين انتهجوا سياسة عنصرية لمصلحة الأرستقراطية العربية ضد الأعاجم ، بل وضد العرب الذين هم ليسوا من أبناء هذه الأرستقراطية ، فكان ذلك سبباً من أسباب ظهور حركة « الشعوبية » المعادية للعرب ، وذلك بالإضافة إلى السبب الأصلي ، وهو ميل قادة الحركة الشعوبية ـ بما يكمن في نفوسهم من كراهية للعرب ـ إلى العمل ضد العرب ، والانتقام منهم لهزيمتهم بعد الإسلام .

ويذكر لنا المؤرخون أن النظرية الشعوبية ، بدأت بداية سليمة حيث كانت تدعو إلى « المساواة » بين العرب وغيرهم ، من الأجناس غير العربية ، فالشعوبية حسب هذا المعنى هي « فرقة لاتفضل العرب على العجم » . ولذلك فقد كان المؤرخون يسمون دعاة « الشعوبية » في هذه المرحلة باسم « أهل التسوية » ، أي أهل « المساواة » بلغتنا العصرية .

والعرب عند أصحاب هذه النظرية ، « ليسوا أفضل من غيرهم من الأمم ، ولا أية أمة أفضل من أية أمة » ، و « الناس كلهم من طينة واحدة ، وسلالة رجل واحد » ، « وإنما التفاضل بين الأفراد لابين الأمم » .

وكما يقول « ابن عبد ربه » في كتابه « العقد الفريد » عن هذه الفرقة من فرق الشعوبية : « وليس تفاضل الناس فيما بينهم بآبائهم ، وأحسابهم ، ولكن بأفعالهم وأخلاقهم ، وشرف أنفسهم ، وبعد همتهم ، وإنما الكريم من كرمت أفعاله ، والشريف من شرفت همته » .

ويقول « أحمد أمين » في كتابه « ضحى الإسلام » : « إن حجة هؤلاء أن في كل أمة الطيب والخبيث ، ولكل أمة محاسنها ومساويها ، وخير ميزان توزن به الأعمال ، الدين أو الخلق . ولسنا نستطيع ذلك في الأمم وإنما في الأفراد ، ففرد خير من فرد بدينه أو بخلقه ، ولاشيء غير ذلك ، وهذا الصنف من الناس يسمّي أهل التسوية ، أي الذين يسوون بين الأمم ، ولايجعلون فضلاً لأمة على أخرى ، ويمثلهم أكثر المتدينين من العلماء من العرب والعجم ، لأن روح الإسلام وقواعده تؤيد هذا المذهب » .

وإذا تركنا الشعوبية بهذا المعنى « الإنساني » الذي يدعو إلى المساواة ، نجد أن الشعوبية قد تحولت سريعاً إلى نزعة عنصرية شديدة العداء للعرب والتآمر عليهم . وقد وقف زعماء الشعوبية

بهذا المعنى الأخير وراء الدولة العباسية ، ووراء تدمير الدولة الأموية ، والقضاء عليها .

وكما كان الأمر في الدولة الأموية تعصباً على غير العرب ، واضطهاداً عنيفاً لهم ، انقلبت الصورة رأساً على عقب في العصر العباسي ، ووصف الشاعر العربي « نصر بن سيار » ، موقف الشعوبية في هذه المرحلة بقوله :

فمن يكن سائلاً عن أصل دينهم
فإن دينهم أن تقتل العرب

وهذه نماذج مما أصاب العرب من الاضطهاد على يد الشعوبية في هذا العصر العباسي :

١ ـ أخذ دعاة الشعوبية يؤلفون الكثير من الكتب في ذم العرب وتجريدهم من أي فضيلة إنسانية أو حضارية ، ونذكر من هؤلاء كاتباً اسمه « سعيد بن حميد » الذي ألف عديداً من الكتب في هذا المجال ، وهي كتب لم تصل إلينا ، وإن كان المؤرخون قد ذكروها ، ولخصوا ما فيها من مضامين ، ومن هذه الكتب « فضل العجم على العرب » ، ومن بين هؤلاء الكتاب أيضاً كاتب اسمه « الهيثم بن عدي » ، وقد بلغ به كرهه للعرب الذين اشتهروا بمعرفة أنسابهم وتمجيدها ، أن قام بتأليف كتاب عنوانه « أسماء بغايا قريش في الجاهلية » ، وكان هدفه من هذا الكتاب طبعاً هو

أن يطعن في أنساب العرب ، ويثير حولها أعنف الشكوك ، وكاتب آخر هو « أبو عبيدة بن المثنى » وكان أصله من يهود فارس ، وقد ألف كتباً عديدة ضد العرب منها : « لصوص العرب » و « أدعياء العرب » .

٢ ـ تزييف القصص التي لاأساس لها من الصحة ضد العرب والقبائل العربية ، ثم تشويه الأدب العربي نفسه ، حتى لايبقى للعرب أدب له قيمة ، حيث أن الأدب كان من أهم العناصر التي تعتمد عليها قوة الأمة العربية وما لها من حضارة وتراث .

٣ ـ ووصل الأمر في عهد الخلفاء العباسيين إلى حرمان العرب من المناصب العليا في الدولة ، فتولاها الفرس ، والترك وغيرهم من العجم . وكان الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ـ وهو عربي أباً وأماً ـ يرفض أن يكون هناك عربي في قصره ، حتى لو كان بين الخدم .

٤ ـ تزييف الأحاديث النبوية التي تمجد العجم على حساب العرب ، ومن ذلك ماقيل على لسان الرسول مامعناه « إنني أكثر ثقة بالفرس ، مني بالعرب » ، وهي أحاديث واضحة التلفيق .

وقد شرح أحمد أمين دور « الشعوبية » بوضوح في كتابه « ضحى الإسلام » ، كما شرحه في المجال الأدبي بدقة وتوسع الدكتور « محمد نبيه حجاب » في كتابه « مظاهر الشعوبية في الأدب العربي

حتى نهاية القرن الثالث الهجري » ، وعلى هذين الكتابين أعتمدنا في دراستنا للشعوبية .

والذي يهمنا الآن في قضية « الشعوبية » هو أن مابقي لنا من معنى الشعوبية هو عداؤها العنيف للعرب ، جنساً وثقافة وحضارة وسلطة سياسية ، ولم يبق لنـا من « الشعـوبية » معناها الإنساني الأول ، وهو معنى الدعوة للمساواة بين سائر المسلمين بلا تفرقة ، بين من هم من أصل عربي ومن هم من أصول أخرى .

والشعوبية بهذا المعنى العنصري ، المعادي للعرب ، ليست كما يقول « الدكتور لويس عوض » في مقاله « بالأهرام » « ١١ ـ ٥ ـ ١٩٧٨ » « أقرب ماتكون إلى معنى القومية بالمدلول الحديث » . وتعريف الشعوبية عند الدكتور لويس عوض في نفس المقال هو أنها : « شاعت في العصر العباسي للدلالة على ثورة القوميات على الخلافة العربية ، باعتبار أن وحدة الدين الإسلامي لاتبرر سيادة الجنس العربي واستئثاره بالحكم المركزي » .

هذا المعنى الـذي يقـول به الـدكتور لويس عوض للشعوبية ينـطبق على المرحلة الأولى للشعوبية فقط ، عندما كانوا يسمون أنصارها باسم « أهل التسوية » ، وهذه مرحلة سريعة عابرة ، حل محلها معنى آخر ، هو المعنى الأساسي الذي لعب دوراً كبيراً في التاريخ الإسلامي ، وهو المعنى الذي يعتمد على العداء العنيف للعرب ، والعمل على تجريدهم من كل قيمة وسلطان .

وهـذا المعنى لايمثـل ثورة قومية ـ كما يقـول الـدكتور لويس عوض ـ على الإطـلاق ، بل هو أقـرب مايكـون إلى المـذاهب العدوانية الحديثة مثل « النازية » و « الفاشية » .

فالشعوبية هنا قريبة ، بل ومشابهة جداً للدعوة التي كان ينادي بها النازيون ، وهي « معاداة السامية » ، تلك الدعوة التي كانت تهدف إلى القضاء على اليهود باعتبارهم ـ كما يقال ـ من « أصل سامي » منحط متخلف ، وهي الـدعـوة التي تبناها النازيون ، فدعـوة الشعـوبية في حقيقتها دعوة عنصرية هدفها إبادة الجنس العربي ، وتدمير الحضارة العربية تدميراً كاملاً .

والحقيقة أن التفاعل الحضاري في القرون الأولى للإسلام ، وبعـد ذلـك حتى العصر الحديث ، قد انتهى إلى تحديد معنى جديد للعروبة ، وهو معنى أقرب إلى روح الإسلام ، من المعنى الذي كان ينادي به الأمويون ويرسمون سياستهم على أساسه . والعروبة الآن تضم في إطارها كثيراً من الأمم التي لم تكن أصلاً من قبائل الجزيرة العربية ، وهي تضم كل الشعوب التي تنطق باللغة العربية ، وتعيش بين المحيط والخليج ، ويرتبط بعضها مع بعض في الرقعة الجغفرافية ، وفي الثقافة المشتركة ، والمصلحة المشتركة ، والمصير المشترك ، وهذه الشعوب تشارك في تحديد معنى العروبة ، ومضمـونها مشاركة جوهرية ، سواء كانت الأصول القديمة لهذه الشعوب من المسلمين أو من المسيحيين أو من اليهود العرب ، وقد

أصبح هذا المعنى للعروبة واضحاً تمام الوضوح ، والحركة الجديدة التي تنادي بالقومية العربية ووحدة الوطن العربي لاتعترف بأي فرق بين عربي وآخر ، ولاتأخذ إطلاقاً بنظرية الجنس أو الدم .

ونحن نجد أن الحركة الشعوبية ، والتي كانت في جانبها التاريخي والنظري الأكبر ، حركة عنصرية ، هدامة ضد العنصر العربي بمعنى الجنس والدم والتراث ، والثقافة ، قد أطلت برأسها من جديد في العصر الحديث على صورة أخرى ، وهذه الحركة الشعوبية الحديثة يغذيها الاستعمار ، وهي تحارب الفكرة العربية بمعناها العصري ، ذلك المعنى الإنساني العميق الذي لاينظر إلى الجنس والدم في تحديد معنى العروبة ، وإنما ينظر إلى اللغة ، والتراث المشترك ، والمصلحة المشتركة ، والمصير الواحد ، في تحديد معنى العروبة ، والذين يحاربون « العروبة المعاصرة » هم شعوبيون من نوع جديد ، لأنهم ينادون بالقضاء على العروبة التي تجمع أبناء هذه المنطقة ، في سبيل خلق قوميات جديدة ملفقة ، ومعارضة للقومية العربية ، مما سوف يؤدي إلى القضاء على شعوب هذه المنطقة وتمزيقها ، لأنها ستصبح مجموعة منعزلة من الشعوب الصغيرة ، التي لاوزن لها في حساب الحضارة العصرية على الإطلاق ، والذين ينادون بالفينيقية في الشام ، والفرعونية في مصر ، والبابلية والأشورية في العراق ، لايمكننا أن ننظر إليهم إلا على أنهم شعوبيون جدد ، يريدون تدمير الأمة العربية من داخلها ، وليس في ذلك مصلحة لأحد إلا للاستعمار وأعوانه ،

والمشتركين معه في المصالح والأهداف ، من الذين يريدون أن يسيطروا ويتحكموا في هذه المنطقة من العالم ، كما أن الشعوبية الجديدة تلتقي مع الصهيونية لقاء كاملاً ، فالصهيونية هي الأخرى نظرية عنصرية ، تقوم على كراهية العرب والعداء لهم ، والعمل على إزاحتهم من خريطة التاريخ المعاصر .

إن التفاعل الحضاري الطويل الذي مرت به هذه المنطقة من العالم ، يؤكد خطأ النظرية « العنصرية الأموية » التي قامت على أساس « سيادة الجنس العربي » ويؤكد خطأ النظرين المقابلة التي قامت على أساس القضاء على العنصر العربي ، ويؤكد أخيراً سلامة النظرية العربية الحديثة التي تدعو إلى وطن واحد يتساوى فيه الذين يتكلمون العربية ، وتتصل مصائرهم بعضها مع بعض أشد الاتصال وأعمقه . كما أن هذه النظرية العربية الحديثة تؤكد الدور الحضارى والإنساني الكامل للعرب في هذا العالم ، بتراثهم الثقافي ، وثروتهم ، وموقعهم الجُغرافي الحساس . ولايمكن أن تكون الدعوات « الشعوبية الحديثة » إلا خطراً لاحد له على العرب جميعاً : مصريين أو عراقيين أو سوريين أو سودانيين أو مغاربة أو غير ذلك من بين سائر العرب ، حتى لو أخذت هذه « الشعوبية الحديثة » مظهراً شفافاً من الدعوات الانعزالية التي يتبناها بعض كبار المفكرين عندنا مثل : توفيق الحكيم وحسين فوزي ولويس عوض .

لقد مهدت الشعوبية القديمة لانهيار العالم العربي خلال أكثر

من خمسمائة سنة سادت فيها سلطة العثمانيين ، وتدهور خلالها العقل العربي ، والانجاز الحضاري العربي ، ولو انتصرت الشعوبية الحديثة ، بأي معنى من المعاني ، فسوف يتدهور الوضع العربي من جديد تدهوراً لاخلاص منه ، ونحن اليوم في مفترق الطرق : إما أن يتحد العرب وتتراكم قدراتهم وإنجازاتهم ، وينهضوا لمواجهة تحديات العصر وصعوباته ، أو يتفرقوا ويتمزقوا ويخوضوا في بحر الظلمات ، في مصير لايعلم إلا الله مدى مايحمله لنا من ضياع واضطراب وعجز عن ملاحقة مايجري حولنا من تقدم وإنجاز ، وتحرك سريع إلى الأمام ، في كل موقع من مواقع الحضارة .

القومية العربية

على الطريقة اللاتينية !

يعقد الدكتور لويس عوض في مقاله المنشور بالأهرام « ١١ مايو ١٩٧٨ » مقارنة بين الشعوب اللاتينية وشعوب الأمة العربية ، والمقارنة في رأيي غير صحيحة من الناحية العلمية ، رغم الأسانيد الكثيرة والعميقة التي اعتمد عليها الدكتور لويس عوض .

وقبل أن أبدأ في مناقشة هذه القضية الأساسية أود أن أتوقف قليلاً أمام ملاحظتين للدكتور لويس عوض :

أما الملاحظة الأولى فتتعلق بحديثه عن تغيير اسم « مصر » في عهد الوحدة المصرية السورية « سنة ١٩٥٨ » إلى اسم « الجمهورية العربية المتحدة » حيث اعترض الدكتور لويس على هذا التغيير اعتراضاً عنيفاً يفوح من بين سطور مقاله وكلماته وحروفه . وهنا أحب أن أقول للدكتور لويس ولسائر المعترضين على فكرة القومية العربية أنه ليس من مبادىء القومية العربية تغيير اسم « مصر » أو أي اسم تاريخي آخر من أسماء البلاد العربية ،

فالوحدة العربية لاتعني أبداً محو هذه الأسماء من الوجود . على أن ماحدث سنة ١٩٥٨ لم يكن تغييراً لاسم مصر ، إذا نظرنا إلى الأمر في موضوعية وهدوء ، ذلك لأن اسم مصر ظل على كل لسان وكل قلم ، وبقي في الواقع العملي كما هو دون تغيير له أو مساس به ، ولم يكن اسم الجمهورية العربية المتحدة سوى تسمية سياسية للكيان الجديد الذي قام بوحدة مصر وسوريا ، ولم يكن هناك مبرر لاستمرار هذا الاسم بعد الانفصال إلا من باب الرمز الدال على تمسك مصر بعروبتها ، وإيمانها بوحدة المصير العربي في وجه المحاولات العنيفة لعزل مصر ، ولم يكن في قيام الجمهورية العربية المتحدة رغبة من شخص واحد في أن يكون امبراطوراً على العرب ، بل كان في قيامها رغبة عميقة في خلاص مصر والعرب من الاستعمار والضياع الحضاري والتخلف ، على أن التسمية السياسية للجمهورية العربية المتحدة لم تكن بدعة ابتدعها العرب ، فقد كانت دول العالم الكبرى تلجأ إلى هذه التسميات السياسية كلما اقتضت الظروف ذلك ، فاسم روسيا تحول إلى « الاتحا د السوفيتي » أو « اتحاد الجمهوريات السوفيتية » منذ سنة ١٩١٧ إلى اليوم ، ومع ذلك لم يستطع الاسم السياسي أن يطمس على الإطلاق الاسم التاريخي وهو « روسيا » . كذلك فإن أمريكا لها اسم سياسي آخر هو « الولايات المتحدة الأمريكية » ومع ذلك فالاسم السياسي لم يلغ اسم « أمريكا » التاريخي الذي يتردد على الألسنة في كل أنحاء العالم ، كذلك فإننا نجد أن « انكلترا » لها اسمان آخران هما : « بريطانيا » و « المملكة المتحدة » . وهكذا

فإننا نجد أن الأسماء السياسية لاتلغي الأسماء التاريخية ، ولم يكن اسم « الجمهورية العربية المتحدة » يهدف إلى إلغاء اسم مصر ، ولم يكن بقادر على ذلك ، فليطمئن الدكتور لويس عوض إلى أن كل دعاة العروبة حرصاء أشد الحرص على اسم مصر ، وعلى كل ثمين في مصر ، وكل شيء - عندنا - فيها ثمين من البشر ، إلى المياه ، إلى الرمال ، وذرات التراب ، إلى التاريخ والتراث .

والملاحظة الثانية التي أتوقف أمامها في مقال الدكتور لويس عوض ، هي قوله بأن « أول مظهر من مظاهر القومية العربية ، ظهور الدولة المركزية الموحدة صاحبة الولاية على كل شيء » وعدم قيام مثل هذه الدولة المركزية يجعل من القومية العربية « استرسالاً في أحلام اليقظة المرادف للمراهقة السياسية » كما يقول الدكتور لويس .

وهنا نسأل الدكتور لويس عوض : هل يمكن أن يقدم لنا نموذجا واحداً في التاريخ يثبت فيه أن الدولة المركزية هي العلامة « الأولى » للقومية في أي بلد من البلاد ؟ !

إننا إذا راجعنا الوقائع التاريخية ، وجدنا العكس تماماً هو الصحيح ، فالحركات القومية تنشأ أولاً ، وبعد ذلك تقوم الدولة المركزية ، أي أن الدولة المركزية هي « آخر » علامات القومية ، وليست أولها ، والدولة المركزية هي نتيجة للحركة القومية . ، وليست سبباً لها على الإطلاق . لقد سبقت الحركة القومية في ألمانيا

قيام الـدولة المركزية بقيادة « بسمارك » في أواخر القرن الماضي ، وكانت الحركة القومية الألمانية هي سبب قيام الدولة المركزية وليس العكس . وهـذا هو ماحـدث في إيطاليا في أواخر القرن الماضي أيضاً ، فقد قامت الدولة المركزية نتيجة للحركة القومية ، وكانت الدولة المركزية هي آخر تعبير عن الحركة القومية ، ولم تكن أبداً أول تعبير عنها .

وفي المقابل نستطيع أن نجد نماذج كثيرة للدولة المركزية التي لم تستطع أن تخلق أي « قومية » على هواها ، فالدولة المركزية العثمانية حكمت العالم العربي مايقرب من خمسمائة سنة ، ولم ينته الاستعمار العثـماني للبـلاد العـربية إلا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ . ومع ذلك ، وخلال هذه القرون الطويلة من قيام الدولة المـركـزية العثمانية ، لم تستطع هذه الدولة أن تفرض شخصيتها القـومية على سكـان هذه البلاد ، ولم تستطع أن تطمس القومية الأسـاسية لهؤلاء السكـان ، بل ترتب على قيام الـدولـة المركزية العثـمانية ظهـور نتـائج عكسية لها ، حيث بدأت حركة القومية العربية من نقطة المقاومة للعثمانيين .

وهنـاك نموذج آخر تمثله فرنسا في الجزائر ، فقد قامت فرنسا بضم الجـزائـر إليها مائة وثلاثين عاماً متصلة أو تزيـد « من ١٨٣٠ إلى ١٩٦٢ » ، ومع ذلك لم تستطع الدولة المركزية الفرنسية القوية أن تفـرض الشخصية القـومية الفـرنسية على الجـزائريين ، رغم مابذلته في سبيل ذلك من محاولات جبارة .

وهكـذا تكـون الـدولة المركزية هى « آخر » علامات الحركة القـومية ، وليس أولهـا كما يقول الدكتور لويس عوض ، بل إن الـدولـة المـركزية قد توجد دون أن تكون هناك وحدة قومية بين الشعوب المحكومة بهذه الدولة . ومن المؤكد أن عدم وجود الدولة المـركزية لا يعني أبدا عدم وجود الوحدة القومية . وفي رأيي أن الـدكتور لويس عوض مازال للأسف الشديد يخلط بين المبادىء والنظريات من ناحية ، وبين الظروف العملية من ناحية أخرى ، ومثـل هذا الخلط لابد أن يؤدي إلى أخطاء عديدة ، فإذا وجدنا الـظروف العملية القاسية التي تواجهها القومية العربية تمنع قيام دولـة مركزية واحدة ، فإن ذلك يدفع الدكتور لويس عوض إلى استنتاج يقول بأن القومية العربية ليست إلا وهماً وأسطورة ، وهذا النوع من التفكير إيغال فى « البرجماتيه » أو « النفعية » أو « المادية الشكلية » ، والتي تفـترض أن المبـادىء لاتكـون سليمـة إذا ماتعرضت لبعض المشكلات في الواقع العملي ، وهذه كلها مناهج لاتعترف « بالظاهرة » إلا إذا كان هناك دليل مادي « صارخ » يدل عليها .

فإذا قلنا إن القومية العربية موجودة بوحدة اللغة بين العرب ، وبـوحـدة الاتصـال الجغـرافي ، وبوحدة الثقافة والتراث والمصير المشترك بينهم ، إذا قلنا هذا قيل لنا : لا ، هذه كلها ليست أدلة على وجـود القـومية العربية ، لأن الدليل الوحيد هو قيام الدولة المركزية التي بدونها لاتوجد قومية عربية ولا وحدة عربية .

إن هذا المنطق لايمكن أن يكون منطقاً سلبياً على الإطلاق ، فالقومية العربية فكرة ، والفكرة تؤدي إلى قيام حركة ، والحركة هي التي يمكن أن تحقق الدولة المركزية الواحدة ، والدولة المركزية تعبير عن القومية ، ولكنه تعبير قد يتأخر مدة طويلة أو قصيرة لأسباب عملية ، ومع ذلك لايمكن أن يكون التأخر في ظهور الدولة المركزية « دليلاً » على أن القومية غير موجودة .

وقد توصل الدكتور لويس عوض في مقاله « الأهرام ، ١١ مايو ١٩٧٨ » إلى دليل عجيب جداً على عدم وجود أي شعور قومي عند العرب ، هذا الدليل الذي توصل إليه الدكتور لويس يتمثل في قوله : « . . . خذ مثلاً نموذجاً واحداً يوضح هذه المتناقضات من الداخل (أي من داخل البلاد العربية) ، كل دولة عربية لديها حصتها من اللاجئين أو المهاجرين الفلسطينيين ، منذ نكبة ١٩٤٨ ، ومع ذلك فكل بلد حريص على أن يعامل من فيه من الفلسطينيين معاملة الضيوف الأجانب ، ضيوف من الدرجة الأولى ، ولكنهم في آخر الأمر أجانب ، فلو كنا جميعاً عرباً حقاً ، ولو كانت هناك قومية عربية حقاً ، فلم كل هذا الإصرار على حجب صفة المواطنية عن الفلسطينيين في كل بلد « عربي » يعيشون فيه ضيوفاً ، وكأنهم أقلية قومية مستقلة في كل وطن عربي يعيشون فيه ؟ » .

هذا مايسجله الدكتور لويس ليثبت من خلاله أنه ليس هناك شعب عربي واحد ، ولاقومية عربية . والغريب أن مايطالب به

الدكتور لويس عوض هنا هو نفسه ـ للأسف الشديد ـ ماتطالب به إسرائيل تماماً ، ومايطالب به الاستعماريون الذين أنشأوا إسرائيل ، وهو مايسميه هؤلاء جميعا باسم التوطين ، أي توطين الفلسطينيين في البلاد العربية ، التي يقيمون بها . وأنا هنا أؤكد ما أؤمن به دائماً ، فأنا لاأتهم الدكتور لويس عوض في وطنيته ، فهو عندي فوق أي اتهام من هذا النوع ، ولكن ما أسجله هنا هو نوع خطير فادح من تشابه الأفكار لابد من التنبيه إليه . فإسرائيل ، والاستعماريون جميعاً يريدون إذابة الفلسطينيين في سائر البلدان العربية ، حتى لايكون هناك شيء اسمه فلسطين ، ولايكون هناك شعب اسمه شعب فلسطين ، وبذلك تصبح إسرائيل بلا مشكلة ، وينتهي هذا « الصراع التاريخي » ، الذي يقلق بال إسرائيل تماماً ، ومن حسن الحظ أن البلاد العربية قد أدركت هذا الهدف تماماً ، واتفقت حوله اتفاقاً تنص عليه قوانين الجامعة العربية ـ فيما أذكر ـ ، وهذا الاتفاق يقوم على أساس الإبقاء على صفة « الفلسطينيين » « كفلسطينيين » ، حتى لاتموت قضيتهم العادلة ، وتنتهي ، وتتلاشى .

ومثل هذا الموقف ليس دليلاً ـ كما يقول الدكتور لويس عوض ـ على انعدام العروبة والقومية العربية ، بل هو دليل على تمسك العرب بالقضية الفلسطينية ، وعدم التسليم بأن هذه القضية قد انتهت ، وتمت تصفيتها بإذابة شعب فلسطين في بقية العرب . ولو أخذنا بهذا المنهج الذي يدعو إليه الدكتور لويس عوض لحققنا تماماً

أهداف إسرائيل البعيدة ، وهو إقامة اسرائيل الكبرى التي تمتد من النيل إلى الفرات ، وعلينا ـ حسب هذه النظرية الخاطئة المرفوضة ـ أن نفعل نفس الشيء كل يوم لحل قضايانا المختلفة ، فعلينا أن نذيب في الوطن العربي الكبير أبناء جنوب لبنان ، ثم أبناء الضفة الغربية ، ثم أبناء كل جزء من الوطن العربي ، يضيع في ظل هجمات إسرائيل أو غيرها على الوطن العربي هنا وهناك .

إن هذا الذي يدعو إليه الدكتور لويس عوض هو خطأ فادح ترفضه العروبة ، ويرفضه المؤمنون بالقومية العربية ، فليس هذا هو الحل العربي للمشكلة الفلسطينية ، ولكنه للأسف الشديد هو « الحل الإسرائيلي الاستعماري » ، وإن كان الدكتور لويس عوض يدعو إليه بحسن نية وطنية .

بعد ذلك نتوقف أمام القضية الرئيسية وهي تشبيه الدكتور لويس عوض في مقاله للعرب بالرومان حيث يقول :

« . . . ومثل العرب مثل الرومان ، فالرومان أعطوا أوروبا اللاتينية ـ إيطاليا وأسبانيا والبرتغال وفرنسا ـ الدين المسيحي الكاثوليكي واللغة اللاتينية بلهجاتها الحديثة . . فهل من أجل ذلك نستطيع أن نسمي الفرنسيين أو الأسبان مثلاً بأنهم رومان ؟ طبعاً لا . . . وهل نستطيع أن نتحدث عن القومية الرومانية أو القومية اللاتينية في الكلام عن فرنسا وأسبانيا والبرتغال ؟ . . طبعاً لا » .

هنا لابد أن نقول للدكتور لويس عوض إن تشبيه العرب بالرومان غير سليم على الإطلاق ، وإن تشبية البلاد العربية بالبلاد اللاتينية هو أيضاً تشبيه غير سليم على الإطلاق ، فهناك فارق جوهري بين البلاد العربية والبلاد اللاتينية . هذا الفارق هو أن اللغة اللاتينية قد تحولت في بلاد أوروبا التي نسميها باسم أوروبا اللاتينية ، وهي فرنسا وأسبانيا وإيطاليا والبرتغال ، تحولت هذه اللغة اللاتينية في تلك البلاد إلى لهجات ، وهذه اللهجات تحولت بدورها إلى لغات مستقلة تمام الاستقلال بعضها عن بعض . . فاللهجة اللاتينية في فرنسا أصبحت هي اللغة الفرنسية التي كتب بها راسين ، وموليير وروسو وفولتير ، واللهجة اللاتينية في إيطاليا ، أصبحت هي اللغة الإيطالية التي كتب بها دانتي ، واللهجة اللاتينية في أسبانيا أصبحت هي اللغة الأسبانية التي كتب بها سرفانتس صاحب « دون كيشوت » ، واللهجة اللاتينية في البرتغال أصبحت هي اللغة البرتغالية وليس لها أدب عظيم يعرفه العالم . وانفصال هذه اللهجات وتحولها منذ مايقرب من خمسمائة سنة إلى لغات مستقلة ، يدل على أن هناك فوارق قومية عميقة الجذور بين هذه البلاد . وهذه الفوارق القومية هي التي أدت إلى الانفصال اللغوى ، رغم أن أصل هذه اللغات كلها واحد .

إذا نظرنا إلى واقع البلاد العربية وجدنا الأمر يختلف عما حدث في البلاد اللاتينية كل الاختلاف ، فقد دخلت اللغة العربية الى البلاد التي نسميها باسم البلاد العربية منذ مايزيد على ألف سنة ،

واستقرت في هذه البلاد ، وقد نشأت ـ كما هو طبيعي ـ لهجات عربية مختلفة في كل بلد عربي ، مثل اللهجة المصرية ، واللهجة الشامية ، واللهجة العراقية ، واللهجة السودانية ، ولهجات المغرب العربي ، ولكن لم يحدث أبداً أن استطاعت إحدى هذه اللهجات أن تصبح لغة منفصلة قائمة بذاتها ، وظلت اللغة العربية في كل هذه البلاد ، وخلال أكثر من عشرة قرون طويلة ، هي القاسم المشترك الأعظم بين البلاد العربية ، ولم يحدث أبداً أن قامت إحدى البلاد العربية بجعل لهجتها المحلية لغة خاصة بها ، لها قواعدها المستقلة ، وبها يعبر الأدباء أو يستخدمها الناس جميعاً في أعمالهم المختلفة . ويرجع ذلك بوضوح تام إلى عوامل عديدة أهمها « القرآن » ، حيث اقتضت دراسة القرآن عند المسلمين ، وهم الغالبية العظمى من سكان البلاد العربية ، أن يحافظ المسلمون على اللغة العربية ، وقد ساعدت وسائل الاتصال الحديث على بداية حركة واسعة جداً لإذابة الفوارق بين اللهجات العربية المختلفة ، وتقريب هذه اللهجات من اللغة الأم .

إننا هنا أمام ظاهرة واضحة هي أن اللغة العربية قد عاشت على مر الأجيال في البلاد العربية حية قوية ، وأن اللهجات المختلفة لم تستطع أبداً أن تصبح لغات قومية ، بل إن هذه اللهجات تتلاشى وتضعف يوماً بعد يوم نتيجة للاتصالات الواسعة بين العرب .

هذا هو الفارق الأساسي بين الدول اللاتينية والدول العربية ،

وهـو فارق في منتهى الخطورة والأهمية ، ولا أدري لماذا تجاهله الـدكتـور لويس عوض ، ولم يعـترف به رغم وضوحه وجلائه . والحقيقة أن وضع البلاد العربية الآن يشبه وضع إيطاليا وألمانيا قبل توحيدهما في أواخر القرن الماضي ، بعد أن كانت هاتان الدولتان مجموعات من الدويلات والولايات الصغيرة ، لكنها كانت جميعاً تتكلم اللغة الإيطالية « في الولايات الإيطالية » واللغة الألمانية « في الـولايات الألمانية » . ولايمكن أبداً تشبيه البلاد العربية بالبلاد الـلاتينية إلا إذا استـطاع الدكتور لويس عوض أن يثبت لنا أن المغرب يستخدم لغة تختلف عن اللغة التي تستخدمها العراق ، وأن الخلاف بين هذه اللغات جميعاً هو نفسه الخلاف بين الفرنسية والإيطالية والأسبـانية والـبرتغـالية ، ولن يستطيع الدكتور لويس إثبات ذلك لأن إثباته مستحيل .

ويمكننـا أن نشـير هنـا إلى المحـاولات المستميتـة التي بذلهـا الاستعمار الغربي لإحياء اللهجات العربية المحلية ، بحيث تصبح هذه اللهجـات لغـات كاملة قائمـة بذاتها ، منفصلة عن اللغة العربية . وكان الهدف الأساسي من وراء ذلك هو إقناع المصريين وغـيرهم من العـرب بأنهم يمثلون أمماً مستقلة تمام الاستقلال ، وأنهم ليسـوا أمة واحدة ، أي أنهم كانوا يحاولون تطبيق التجربة الـلاتينية بحـذافيرها على البلاد العربية ، ولكنهم رغم جهودهم الجبارة قد فشلوا في ذلك تمام الفشل ، ولو أن هذه المحاولات قد نجحت ، وأصبحت اللهجـات العـربية لغات رسمية تحل محل

العربية الفصحى ، لصح مايدعو إليه الدكتور لويس عوض من ضرورة الانفصال القومي بين مصر والعرب الآخرين ، انفصالاً يشبه انفصال الفرنسيين والطليان والأسبان والبرتغاليين بعضهم عن بعض ، رغم أصولهم الواحدة ، وخاصة أصولهم الدينية واللغوية .

وهـذه المحاولات الواسعة لإحلال اللهجة العامية محل اللغة العزبية ، بهدف خلق قومية مصرية على الطريقة اللاتينية ، هذه المحـاولات تستحق وقفـة مستقلة لدراستها بشيء من التوسع في الفصل التالي .

القومية العربية
والعبقرية المصرية

ينادي الدكتور لويس عوض في مقاله الذي أشرنا إليه في الفصل السابق والمنشور بالأهرام في ١١ مايو ١٩٧٨ تحت عنوان « معنى القومية » بأن اللهجات العامية العربية تشبه - في حقيقتها - تلك اللهجات اللاتينية التي كانت منتشرة في أوروبا قبل حوالى خمسمائة سنة ، وقد انتهت هذه اللهجات اللاتينية ، إلى قيام اللغات الأوروبية الحديثة وهي : الفرنسية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية . والسؤال المنطقي الذي لم يعلن عنه الدكتور لويس عوض في مقاله هو : لماذا لا تتحول اللهجات العامية العربية إلى لغات مستقلة قائمة بذاتها ، فتصبح هناك لغة مصرية ، ولغة عراقية ، ولغة شامية ، ولغة لكل بلد عربي آخر ؟ .

وقد كان هذا السؤال منطقياً مع فكر الدكتور لويس عوض ، خاصة وأن الدكتور لويس لايؤمن بالقومية العربية التي تجمع - في

نظر دعـاتهـا والمؤمنـين بها ـ بين شعـوب المنطقة العربية في إطار واحـد ، وإنما يؤمن الدكتور لويس بتعدد القوميات في المنطقة ، واستقـلال بعضها عن بعض . ومن الطبيعي ـ على أساس هذه الفكرة ـ أن يكون لكل قومية لغة خاصة بها مثلما حدث في أوروبا تمامـاً ، حتى لو كانت هذه اللغـات القـومية الجديدة من أصل واحد ، وهو « اللاتينية » في أوروبا ، و « العربية » في مصر وما حولها من بلاد العرب الأخرى .

وهـذا الرأي الذي ينادي به الدكتور لويس عوض ليس رأياً جديداً من آرائه ، بل هو رأي قديم نادى به منذ أكثر من ثلاثين سنـة ، فقـد أصدر في عام ١٩٤٧ ديوانـه الشعـري الـوحيد « بلوتولاند » وهي كلمة معناها « أرض الذهب » . وكتب الدكتور لويس لهذا الـديوان مقـدمـة بعنـوان : « حطمـوا عمـود الشعر العربي » ، ومن المفيد أن نعود إلى هذه المقدمة اليوم ، لنعرف منها أن هذه المقـدمـة تمثـل ـ في الحقيقـة ـ نفس الآراء التي يطرحها الـدكتـور لويس عوض سنـه ١٩٧٨ ، أي بعد أكثر من ثلاثين سنـة ، وإن كان الـدكتور لويس قد طرح آراءه في مقدمة ديوانه الشعـري الـوحيد بصورة أشمل وأوضح وأكثر صراحة مما يفعل اليوم ، ومن هنـا فإن الـرد على هذه الآراء القـديمـة أكثر فائدة للمناقشة الدائرة الآن .

يتحـدث الـدكتور لويس في مقدمة « بلوتو لاند » عن موقف المصريين من الشعر العربي واللغة العربية فيقول :

« . . . . أما المصريون فقد كسروا عمود الشعر وعمود اللغة جميعاً ، ومن كان يرتاب في أن الشعر العربي قد عاش في مصر غريباً فليفسر لنا كيف عجزت مصر عن انجاب شاعر واحد بين القرن السابع والقرن العشرين له خطره ، بل ليفسر لنا كيف عجزت مصر عن انجاب شاعر عربي واحد في أكثر من ألف عام ، ولقد كان من فوضى القيم أن يتكلف المؤرخ مهمة الناقد فيحشد البهاء زهير والقاضي الفاضل وابن نباته وابن مطروح وأشباههم في مدرسة واحدة يطلق عليها اسم المدرسة المصرية ، كأنما ينبغي أن تكون لمصر مدرسة في الشعر العربي ، وما لهؤلاء الناظمين إلا قيمة تاريخية فحسب ، والمبالغة في تقديرهم إخلال بمقاييس الحكم لاشك في ذلك ، فقول القائل :

ورمش عين الحبيب يفرش على فدان

يعدل عندي كل ماقدم المستعربون من قريض بين الفتح العربي سنة ٦٤٠ والفتح الانكليزي ١٨٨٢ ، وعجز المصريين عن قول الشعر في الفترة الواقعة بين الفتحين دلالة على شيء واحد هو أن المصريين لم يتمثلوا اللغة العربية القرشية كما يتمثل الكائن العضوي غذاءه ، بل اصطنعوا لأنفسهم لغة خاصة بهم ، أصولها قرشية حقاً ، ولكنها تختلف عن العربية القحة في ألف بائها ، وصيغ ألفاظها وعروضها » .

ويواصل الدكتور لويس عوض تقديم آرائه في مقدمة « بلوتولاند » فيقول :

« . . . مامن بلد حيّ إلا وشبت فيه ثورة أدبية هدفها تحطيم لغـة السادة المقدسة ، وإقرار لغة الشعب العامية أو الدارجة أو المنحـطة ، فأصحـاب « الكوميديا الإلهية » و « أغنية رولان » و « قصـة الوردة » و « دون كيشوت » و « حكايات كانتربري » في إيطاليا وفـرنسا وأسبانيا وانكلترا ، أبطال شعبيون قبل أن يكونوا أدباء ، وزعماء استقلال قبل أن يكونوا أصحاب فن عظيم ، لأنهم كفـروا باللغـة المقدسة « اللاتينية » ، وآمنوا بلهجاتها المنحطة ، والكنيسة التي تخف دائماً إلى حماية السادة من العبيد قامت يومئذ بدورهـا التـاريخي ، فحـاولت إخمـاد ثورة العبيد ، وأهدرت دم الثـائـرين ، أمـا في مصر فقـد ثار كثيرون على اللغة المقدسة ، بعضهم داخل النطاق النظري كلطفي السيد ، وبعضهم بصورة عملية كبيرم التونسي شاعر مصر « الأول » ، ولكن ثورتهم لم تكن بالثـورة الفعالة ، لأن العبيد لم ينضجوا بعد لتحطيم أغلالهم ، ورغم ذلك فنحن نحني رؤوسنا أمامهم ، ولسوف ينجبون العمالقة في مستقبل الأيام » .

ويقول لويس عوض عن نفسه بعد ذلك :

« . . . . . إنـه كان عام ١٩٣٧ يتـعـلم مبـادىء الـلغـة الإيطالية ، واسترعى انتباهه أن البعد بين اللغة اللاتينية المقدسة ولهجتهـا المنحطة : الإيطالية ، أقل من البعد بين اللغة العربية المقدسة ولهجتها المنحطة المصرية ، فعجب لإصرار المصريين على اللغة المقدسة ، وكانت نتيجة هذا العجب التجارب العامية داخل

هذا الديوان » . ثم يقول الدكتور لويس عوض إنه لما عاد إلى مصر سنة ١٩٤٠ « جاهر برأيه فلم يصادف إعراضاً ، وإنما صادف غلظة في الجدل توشك أن تكون زجراً ، ورأي في العيون استنكاراً وجزعاً ، فازداد عجبه . ولكن سرعان ماأفهمه بعض أصدقائه أن المسألة حساسة لأنها تتصل بالدين رأساً ، لأن استخدام اللغة المصرية كأداة للكتابة قد ينتهى بعد قرن أو قرنين بترجمة القرآن إلى اللغة المصرية ، كما حدث للانجيل أن ترجم من اللغة اللاتينية إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، وهذا الانقلاب اللغوي الأدبي لم يقوض أركان الدين ، وإنما قوض أركان الكنيسة التي خشيت أن يقرأ الشعب الساذج كلام السماء ، بلغة يفهمها فتسقط عن بصره الغشاوة » .

ويواصل الدكتور لويس حديثه فيقول : « إن الاعتراف باللغة المصرية لايتبعه بالضرورة موت اللغة العربية إذا احتاط الناس لذلك ، فليس هناك مايجمع الأدبين جنباً إلى جنب ، اللهم إلا إذا شككنا في جدارة الأدب العربي والأدب المصري وقدرتهما على الحياة » ثم يقول الدكتور لويس بعد ذلك إنه قد سكت مُؤْثراً « أن يتولى الدفاع عن رأيه مُسلم لامجال للطعن في نزاهته » .

وأخيراً يقول الدكتور لويس عوض إنه : « قد عاهد الثلوج الغزيرة في خلوة مشهودة بين أشجار الدردار عند الشلال بكمبردج ألا يخط كلمة واحدة إلا باللغة المصرية ، وقد بر بعهده في العام الأول بعد عودته ، فكتب بالمصرية كتاباً اسمه « مذكرات طالب

بعثة » ولكنه استسلم بعد ذلك وخان العهد ، فلتغفر له الثلوج التي لم تدنسها حتى أقدام البشر » .

هذه هي آراء الدكتور لويس عوض التي نادى بها منذ أكثر من ثلاثين سنة ، وقد عرضناها بشيء من التفصيل حتى تكون واضحة ، تمام الوضوح ، وهذه الآراء هي نفسها التى يعيد الدكتور لويس عوض المناداة بها اليوم ، وخاصة في موضوع « اللغة العربية واللغة المصرية » ، حيث يعتبر الدكتور لويس أن « اللهجة المصرية » هي لغة مستقلة عن اللغة العربية . ويستنتج اعتماداً على ذلك أن مصر تمثل قومية أخرى غير القومية العربية ، وهدفي من العودة إلى ماكتبه الدكتور لويس منذ أكثر من ثلاثين سنة ، هو الوصول إلى الجذور الأساسية لآرائه التي يدعو إليها الآن عن القومية العربية ، خاصة أن الدكتور لويس لم يغير هذه الآراء ، ولولا ذلك لما رجعنا إلى كتاباته القديمة ، ولما حاولنا أن نناقش الكاتب الكبير فيها .

والدكتور لويس عوض ـ وهذه فكرة أساسية عنده ـ يسوي في الفقرات التي نقلتها من مقدمة ديوانه الشعري تسوية كاملة بين الفتح العربي لمصر والذي تم سنة ٦٤٠ وبين ماسماه بالفتح الانكليزي لمصر والذي تم سنة ١٨٨٢ . وفي هذه التسوية بين الفتحين خطأ علمي شديد الوضوح ، « فالفتح » الانكليزي لمصر لم يكن « فتحاً » وإنما كان غزواً استعمارياً بكل معنى الكلمة ، وقد قاومه المصريون أشد المقاومة ، أما الفتح العربي فقد شهد

المؤرخون ، حتى الأجانب منهم ، أن المصريين قد استبشروا به ، وساعدوا عليه لتخليصهم من حكم البيزنطيين الذين ظلموا البلاد ، وامتصوا ثروتها ، وفرضوا الضرائب الفادحة على المواطنين ، بينما اتسم الفتح العربي بالمعاملة الإنسانية العادلة للمصريين واحترام عقائدهم ، وتخفيف الضرائب عنهم بصورة ملموسة واضحة . ومن ناحية أخرى ، فإن الفتح العربي قد أحدث في مصر تغييرات حضارية إيجابية كبرى ، لم يحدثها ماسماه الدكتور لويس باسم الفتح الانكليزي ، فمصر قد تغيرت ـ على يد العرب ـ من ناحية الدين ، ودخل معظم سكانها في الإسلام ، بحيث أصبحت غالبية المصريين تدين بالديانة الإسلامية ، ومصر قد أخذت اللغة العربية ، وتكلم بها جميع سكانها ـ مسلمين ومسيحيين على السواء ـ وتركت مصر لغتها القبطية التي كان يتكلم بها عامة الشعب ، واللغة اليونانية التي كان يتكلم بها الحكام والسادة والطبقات العليا في البلاد . كذلك حدث في مصر امتزاج بشري ضخم بين السكان ، نتيجة لانتقال موجات متتالية من القبائل العربية إلى مصر ، والاستقرار فيها ، واتساع نطاق التزاوج بينهم وبين المصريين ، وللمفكر العربي الفلسطيني « محمد إسعاف النشاشيبي » في هذا المجال تشبيه طريف ، قال به سنة ١٩٢٨ ، في خطبة نقلها عنه الأستاذ أحمد حسين في كتابه « نصف قرن مع العروبة وقضية فلسطين » . يقول النشاشيبي في خطبته :

« . . في هذه الحجرة قال لنا شاب مصري إن مصر قد ابتعلت

الفـرس والـرومـان ، والعـرب ، وصحيح أن مصر قد ابتلعت الفـرس ، وابتلعت الرومان ، ولكنها لم تبتلع العرب ، ذلك أن العـرب قد جاءوا إلى مصر بشفيعـين : القـرآن ، ومحمد ، أيها المصري . إنـك جميل . هنـاك في انكلترا جاء الأنكلو فاختلطوا بالسكسـون ، فكان هذا المزيج المتفوق وهم الانكليز « الأنكلو ساكسـون » ، وكـذلـك أنتم أيهـا المصريون . إنكم لستم بمصريين ، ولستم بعرب . إنكم عزب مصريون ، فكونوا لنا في المشرق ماكانه الانكلو ـ ساكسون في انكلترا » .

وهكـذا يرى النشـاشيبي ـ ورؤيتـه صحيحـة ـ أن المصريين يتكـونون من ناحية الجنس من امتزاج العرب الذين هاجروا إلى مصر ، وأقاموا فيها مع المصريين القدماء وهم الأقباط ، ومن هذا المزيج خرج إلى الحياة هؤلاء العرب المصريون المعاصرون .

والحقيقـة التي يسجلهـا التاريخ هي أن الهجرات العربية إلى مصر لم تتوقف منذ الفتح العربي ، وكانت كلها هجرات للإقامة والاستقرار ، وفي البداية كان العرب « يسكنون أطراف البلاد أو في أحياء خاصة بهم » ثم هبطوا بعد ذلك « إلى الريف واشتغلوا بالـزراعة واختلطوا بالأهالي المصريين ، وانتهى الأمر بالاختلاط التام بين العنصرين ، ثم انصهارهما فى بوتقة واحدة [1] »

---

١ ـ محمد العزب موسى ـ وحدة تاريخ مصر .

هل حدث شيء من هذا في علاقة الانكليز بالمصريين ؟ لقد عاش الانكليز أربعة وسبعين عاماً في مصر ، منعزلين عن السكان الأصليين انعزالاً تاماً إلا في نماذج فردية قليلة محدودة لاحساب لها في تكوين مصائر الشعوب ، كما أن اللغة الانكليزية ظلت لغة غريبة أجنبية في مصر ، ولم تصبح أبداً لغة وطنية للمصريين ، ولم يتحول المسلمون ـ وهم الأغلبية في مصر ـ إلى الدين المسيحي ، بل إن المسيحيين المصريين أنفسهم وأغلبهم ـ من الأرثوذكس ـ لم يتحولوا من مذهبهم المسيحي إلى المذهب البروتستانتي الذي يدين به الانكليز ، والبروتستانت ـ بين المسيحيين المصريين ـ أقلية ضئيلة جداً . ومن الناحية الوطنية كان المسيحيون المصريون يرفضون الانكليز كما يرفضهم المسلمون ، وكان « القمّص سرجيوس » أحد الزعماء الوطنيين المصريين المسيحيين في ثورة ١٩١٩ ومابعدها ، يقول إن الانكليز يتذرعون بحماية الأقليات للبقاء في مصر ، ولكن الأقلية الكبرى ـ أي المسيحيين المصريين ـ يرفضون الحماية كل الرفض ، ويريدون الحياة مع إخوانهم في الوطنية دون حماية من سلاح المستعمرين .

فأين وجه الشبه هنا بين الفتح العربي والاستعمار الانكليزي ؟ . . قد يرد الدكتور لويس بأنه لم يقل بالتشابه بين العرب والانكليز في أي عبارة صريحة ، ولكن يكفي أن يسمي الدكتور لويس الاستعمار الانكليزي باسم الفتح الانكليزي ، ويقرنه بالفتح العربي ، حتى يتضح لنا تماماً أنه يقرن بين

« الفتحين » ، ويضعهما في مستوى واحد . والحقيقة أنه لا وجه للشبه على الإطلاق بين « الفتح » العربي و « الفتح » الانكليزي ، إذا استخدمنا « وصف » الدكتور لويس للاستعمار الانكليزي ، وتسميته لهذا الاستعمار باسم « الفتح » . وهي تسمية خاطئة وغير دقيقة .

ويركز الدكتور لويس عوض بعد ذلك على التشابه بين « اللاتينية » و « العربية » ويقول إن اللاتينية عند الكنيسة الأوروبية كانت لغة مقدسة ، وإن اللغة العربية عند المسلمين هي لغة مقدسة .

والمقارنة هنا بين « اللاتينية » و « العربية » مقارنة خاطئة . فالإسلام ليس فيه كنيسة مقدسة ، ولم يكن فيه مثل هذه الكنيسة في يوم من الأيام . صحيح أن المسلمين عرفوا « الخلافة » ، التي جمعت بين السلطة الدينية ، والسلطة السياسية ، ولكن « الخلافة » لم ترتبط أبداً لا بالعرب ، كجنس ، ولا باللغة العربية ، وقد استمرت الخلافة الإسلامية مايقرب من خمسمائة عام في يد « الأتراك العثمانيين » الذين لم يكونوا ينتمون إلى العرب ، لا من ناحية اللغة ، ولا من ناحية الجنس ، بل يقال إن بعض المفكرين العرب القدماء ، ومنهم الجاحظ ، قد نادوا ـ صراحة ـ بأن الخلافة « لايلزم أن تكون في قريش ولا في العرب ، فغير العربي أولى بالخلافة ، لأنه يسهل خلعه إذا جار أو ظلم » .

وهكذا وصل التحرر من العنصرية والحلم بالعدالة عند بعض

مفكري العرب الكبار إلى حد الدعوة الصريحة إلى تفضيل « غير العرب » في منصب الخلافة الدينية والسياسية ، منعاً لشبهة الاستغلال ، وخوفاً من الاستبداد ، ولو كانت العروبة ـ كجنس ـ شيئاً مقدساً ، ولو كانت اللغة العربية مقدسة عند هؤلاء المفكرين العرب ، لما جاز لأحد أن يفكر في مثل هذا الأمر ، ولطالب الجميع أن يكون الخليفة عربياً ، يتكلم العربية .

وإذا كان المسلمون يقدسون القرآن ، فإننا لم نسمع عن أحد يقدس اللغة العربية ، كما قدس الأوروبيون اللاتينية في العصور الوسطى ، وإن كان الأمر لم يخلُ ـ كما حدثنا الدكتور علي الوردي في مقال له عن « خصائص اللغة العربية » ـ من « أن بعض القدماء كانوا يرون اللغة العربية من عند الله فهي من خلقه ، والله قادر أن يجعلها منذ البداية كاملة تؤدي وظيفتها ، كأحسن ماتكون التأدية ، فكل ما لها من خصائص وأحوال إنما هو من فعل الله ومشيئته » .

ثم يقول الدكتور الوردي ـ ساخراً ـ في نفس المقال : « إن بعض المسلمين ذهبوا إلى القول بأن اللغة العربية هي لغة أهل الجنة ، ومعنى هذا أن جميع المؤمنين سيتكلمون بها في اليوم الآخر ، لافرق في ذلك بين العرب والعجم ، والجدير بهم إذن أن يتمرنوا عليها منذ الآن إذا كانوا يطمعون في دخول الجنة حقاً ، أما إذا كانوا من أهل النار فالأولى بهم أن يتعلموا الانكليزية أو غيرها من لغات الكفار » .

هذه الآراء التي يعرضها الدكتور علي الوردي ، هي من باب الطرائف ، والخرافات ، وليست من باب الحقائق التي يدعو إليها العلماء والمفكرون ، وهذه الآراء تعتبر ثانوية جداً في الفكر العربي ـ دينياً كان أو غير ديني ـ بدليل أن المسلمين الأوائل أنفسهم قد أدخلو تعديلات مهمة على « كتابة » اللغة العربية ، حيث ظهر فى العصر الأموى أول مصحف « منقوط » ، أى أن فيه علامات الإعراب وهى الفتحة والكسرة والضمة ، وفيه أيضا نقط « الباء والتاء والياء » وغيرها من الحروف المنقوطة ، وعلامات الإعراب والنقط لم تكن معروفة فى الكتابة العربية من قبل .

فاللغة عند العرب ـ إذن ـ كانت أداة ثقافية تتأثر بظروف المجتمع ، وتخضع للتعديل والتطوير ، ولم تكن أبداً لغة مقدسة ، ولم يلتزم الذين دخلوا دين الإسلام باللغة العربية ، بل اختارها البعض ـ مثل المصريين ـ عن طواعية واختيار حضاري كامل ، وتركها آخرون إلى لغاتهم الأصلية القديمة مثل : الفرس والأتراك .

والذي نخرج به من ذلك كله هو أن ثبات اللغة العربية عند المصريين يدل على عمق العلاقة بينهم وبين هذه اللغة ، وعلى إحساسهم جيلاً بعد جيل بأن اللغة العربية هي اللغة المناسبة للتعبير عنهم ، دون غيرهم ، ولم يكن هناك أبداً مايمنع من تمسك المصريين بلغتهم القبطية مع دخولهم في الإسلام ، وكان بالإمكان أن نصبح في هذه الحالة مثل إيران وتركيا ، ولكن المصريين لم

يفعلوا ذلك ، مما حمل دلالة تاريخية لاجدال فيها ، وهذه الدلالة هي أن المصريين وجدوا في اللغة العربية أفضل أداة لغوية تناسبهم وتعبر عنهم ، ولم يتخل المصريون عن هذه اللغة ، رغم أن الطبقة الحاكمة في مصر كانت لمدة تزيد على خمسمائة سنة متصلة تتكلم لغة أخرى هي التركية ، ولم يكن موقف المصريين نابعاً من تقديس اللغة العربية ، بل كان نابعاً من إحساس المصريين بأن العربية هي اللغة المناسبة .

ومن هنا فإن تفسير الدكتور لويس لخوف المصريين على لغتهم العربية على أساس أنها لغة مقدسة هو تفسير لا دليل عليه ، والتفسير الصحيح هو أن الشخصية العربية الجديدة في مصر قد تأصلت في هذه البلاد اجتماعياً وحضارياً ، ومن هنا كان تمسك مصر باللغة العربية .

نصل بعد ذلك إلى مايقول به الدكتور لويس عوض من أن المصريين قد فقدوا عبقريتهم ونبوغهم ، ولم يظهر بينهم شاعر عظيم خلال أكثر من ألف سنة ، وبالتحديد من الفتح العربي حتى عصر النهضة الحديثة ، في القرن الماضي . والدكتور لويس يقول هنا صراحة إن اللغة العربية هي السبب في قتل العبقرية المصرية ، وهنا نقول للدكتور ، والتاريخ شاهد على هذا القول ، إن مصر لم يظهر فيها شاعر عظيم خلال تاريخها الطويل قبل الفتح العربي بآلاف السنين ، أي عندما كانت تتحدث بالقبطية ، ومن قبل ذلك بالهيروغليفية ، فهل كانت اللغة القبطية أو اللغة

الهيروغليفية سبباً في عدم ظهور شاعر عظيم خلال خمس آلاف سنة سبقت الإسلام ؟ وإذا كانت هذه الظاهرة موجودة قبل الفتح العربي ، فلماذا نردها في العصر الإسلامي إلى العرب واللغة العربية ؟

يقول العقاد في كتابه « ساعات بين الكتب » عن مصر القديمة : « . . . رجعت إلى مصر القديمة فإذا آلاف السنين مضت فلم تنجب شاعراً واحداً عظيماً ، ولم تخلف لنا أثراً في الشعر كتلك الآثار التي رويناها من أمم العهد القديم ، وقلبت كلام « بنتاؤور » شاعر مصر القديمة فلم أجد فيه شعراً ولاشبيهاً بشعر ، ولم أتسمع نبضاً ولاخفق حياة ، وكل مابقي له مما يسمى بالقصائد والأناشيد شبيه بتدوين المحاضر الرسمية التي ينقصها التفصيل والتحقيق ، فلا هي بالعلم ولا بالفن ، ولاهي بالحماسة ، ولا بالتاريخ » .

هذا مايقوله العقاد وهو على حق ، والظاهرة التي يسجلها الدكتور لويس عوض ، وهي عدم ظهور شعراء كبار في مصر بعد تعريبها ، ليست ظاهرة مقتصرة على العصر العربي في مصر ، بل هي أقدم من هذا العصر بكثير ، فمصر قضت مايقرب من خمسة آلاف سنة قبل الإسلام بدون شعراء عظام ، ولم تكن تتكلم العربية ، ولم تكن تدين بالإسلام ، فما هو السبب ؟ لماذا نفسر عدم ظهور الشعراء العظام في مصر بعد تعريبها هذا التفسير الغريب ، وهو سيطرة اللغة العربية على مصر دون أن يتمكن

المصريون من هضم هذه اللغة وتمثلها ، كما يقول الدكتور لويس ؟ ثم لماذا ظهر شعراء كبار بنفس اللغة العربية في السنوات المائة الأخيرة ابتداءً من البارودي إلى حافظ وشوقي ، وعلي طه ، وناجي والشرقاوي ، وصلاح عبد الصبور ، ومن بين هؤلاء شاعر اختاره أهل عصره أميراً للشعراء هو شوقي ، وشاعر آخر اختاره لويس عوض أميراً لشعراء جيله هو صلاح عبد الصبور ؟ لماذا ظهر هؤلاء الشعراء في السنوات المائة الأخيرة ، رغم أن اللغة العربية هي لغة شعرهم ولغة البلاد كما كان الأمر منذ أكثر من ألف سنة ؟ ولماذا لم تعق اللغة العربية نبوغهم كما عاقت نبوغ مصر منذ الفتح الإسلامي حتى العصر الحديث ؟ إن هذا التفسير يادكتور غير مقبول من الناحية العلمية على الإطلاق ، والتفسير الصحيح هو أن الأدب العظيم لا يظهر أبداً إلا مع الحرية والاستقلال وانعدام الطغيان ، وقد قضت مصر حوالى ثلاثمائة سنة بعد الفتح العربي حتى تعربت ، وبعد التعريب سقطت البلاد تحت سيطرة استبداد سياسي متصل لحكام طغاة معظمهم من غير العرب ، وقد كان هذا الطغيان السياسي سبباً أساسياً في القضاء على عبقرية المصريين ، ولادخل في هذا الأمر للغة العربية ، وهذا نفسه مايمكن أن نقوله عن مصر القديمة في العصور المختلفة الطويلة التي سبقت الفتح العربي ، فقد سقطت مصر لأسباب عديدة على رأسها موقعها الجغرافي الحساس ضحية لطغيان متواصل على مر العصور ، مما أدى إلى ضعف النبوغ الأدبي الذي يحتاج إلى شخصية إنسانية حرة في مجتمع حر ، وقد نبغ المصريون في فنون

لاتحتاج إلى حرية العقل ، وحرية الوجدان ، مثلما يحتاج إليها الشعر ، وسائر فنون الكتابة ، وعندما بدأت أنسام الحرية في العصر الحديث تهب على مصر انتعشت عبقريتها ، وأثمرت ثماراً في الشعر والأدب لايمكن لأحد أن ينكرها أو يتجاهلها .

أما مايقوله الدكتور لويس من أن اللغة العامية المصرية لا علاقة لها باللغة العربية إلا من حيث الأصل القرشي البعيد ، أو أن علاقتها بهذه اللغة الفصحى ضعيفة واهية ، وأن أمل الشخصية المصرية في نموها الفكري والوجداني والسياسي هو أن تتحول اللغة العامية إلى لغة أساسية رسمية للمجتمع كله . هذا القول يادكتور لويس غير صحيح ، ولايعتمد على أي سند علمي ، فقد قمت أنت بمحاولة للكتابة بالعامية المصرية ، ولكنك انصرفت عنها سريعاً إلى العربية ، وليس بين كتبك التي تقرب من عشرين كتاباً سوى كتابين بالعامية المصرية ، وكتاب واحد بالانكليزية هو دراستك عن الشاعر الانكليزي « شيللي » ، والسبب ليس هو عدم الوفاء لوعدك القديم بألا تكتب بغير العامية كما تقول ، ولكن السبب الصحيح هو أن اللغة العربية أدق من العامية المصرية ، وأن العامية المصرية نفسها إنما هي لغة قريبة جداً من الفصحى ، والفرق الأساسي هو تسكين آخر الحروف في العامية ، ولو أخذنا بيت الشعر الشعبي الجميل الذي أعجبك :

رمش عين الحبيب يفرش على فدان

لو أخذنا هذا البيت لما وجدنا فيه كلمة غير عربية ، فكل كلمات البيت عربية فصيحة ، والفرق الوحيد بين العامية والفصحى هنا ، هو أن البيت يعتمد على كلمات ساكنة خالية من الإعراب . هذا هو كل شيء يادكتور ، وهذا هو نفسه مانجده في معظم أعمال الأدب الشعبي من ملاحم وأشعار وأزجال ، بل كثيراً ماكان الفنان الشعبي يتحذلق و « يتحفلط » سعياً للوصول إلى لغة عربية فصيحة معقدة ، ولقد كانت أزجال « بيرم التونسي » ، الذي تعتبره شاعر مصر الأول قريبة أشد القرب من الفصحى ، لأن « بيرم » كان من عشاق العربية ومن دارسيها ، والحرصاء عليها أشد الحرص ، ولقد كتب « بيرم » مجموعة كبيرة من المقامات تقليداً لنماذج الأدب العربي القديم .

فاللغة العربية في مصر إذن هي تعبير عن شخصيتها الأساسية وهي الشخصية العربية ، وتعبير عن انتمائها القومي ، وهو الانتماء العربي ، ولم تتسمك مصر بالعربية خوفاً على القرآن ، فلا خوف على القرآن من اللهجات العامية ، لأن القرآن كتاب ديني مقدس يستطيع أن يبقى ، حتى لو تغيرت لغات المتكلمين بالعربية إلى لغات أخرى ، فالقرآن ، أقوى من تقلبات الزمان والأجيال ، ولم تتمسك مصر باللغة العربية لأنها لغة مقدسة ، ولم تفقد نبوغها في عصور عديدة لأنه تمسكت بالعربية ، بل فقدته بسبب الاستبداد السياسي ، والفقر ، وعدم انتشار التعليم ، فلما زالت الأسباب أو بعضها ظهر نبوغ مصر العربية كما كشف عنه القرن الأخير .

ومـازال الحـديث عن المحـاولات الأخـرى لفرض اللهجات العـامية ، وإحـلالهـا محل اللغـة العربية ، بهدف تمزيق القومية العربية الواحدة إلى قوميات متعددة ، مازال هذا الحديث ممتداً معنا إلى الفصل التالي .

ماتت اللغة العربية

عاشـت اللغـة المصريـة

منـذ أواخـر القـرن المـاضي والمحاولات لاتتوقف عن تحويل اللهجـات العامية إلى لغات مستقلة قائمة بذاتها ، منفصلة تمام الانفصال عن اللغة العربية ، والحجج التي كان يرددها أصحاب هذه الدعوات ، هي نفسها التي يرددها أو يردد بعضها الدكتور لويس عوض الآن ، ومصـدر هذه الدعوات جميعاً واحد ، وهو عدم الإيمان بوجـود أي رابط بين الشعـوب التي تسكن المنـطقة العربية ، والإيمان على العكس بضرورة تحرير كل شعب من هذه الشعوب ـ عن طريق ثورة أدبية شعبية ـ من اللغة العربية ، بحيث يكون هناك لغة خاصة يعبر بها شعب مصر عن شخصيته المصرية الخاصة ، وهذه اللغة هي اللغة المصرية المعتمدة على العامية ، والتي يجب أن تصبح لغة الكتابة ، وليست لغة الحديث فقط ، وعلى اللغـة العـربية أن تفسـح لها الـطريق ، وأن تتخلى عن مكانتها ، كما تخلت اللاتينية عن مكانتها في إيطاليا وفرنسا وأسبانيا

والبرتغال ، وحلت محلها اللغات الأوروبية الحديثة ، وهي لغات تعتمد أساساً على اللهجات المشتقة من اللغة اللاتينية ، كما ذكرنا في الفصل السابق .

وماينبغي أن يحدث في مصر من قيام لغة مصرية خاصة معتمدة على العامية ، هو نفسه مايجب أن يحدث في العراق ، فتقوم لغة عراقية ، وفي الشام ، فتقوم لغة شامية ، وفي المغرب ، فتقوم لغة مغربية ، وهكذا .

وسأركز في هذا الفصل على بعض المحاولات الرئيسية التي قامت لخلق مايسمى باللغة المصرية ، مع إشارة سريعة إلى خلق ما يسمى باللغة اللبنانية .

وقد مضت الآن على بدء هذه المحاولات مايقرب من مائة سنة ، والنتيجة هي فشل هذه المحاولات جميعاً فشلاً كاملاً ، فقد بقيت اللغة العربية في مصر وازدادت قوة ، وبقيت اللغة العربية في لبنان ، وإن كانت الحرب هناك على اللغة العربية شديدة العنف والضراوة ، ومع ذلك فإن تلك الدعوات لم تنجح ولم تنتصر .

ومعنى هذا كله لمن يريد أن يقرأ التاريخ قراءة صحيحة ، أن اللغة العربية متمكنة من قلب هذه المنطقة ، فالمنطقة متمسكة بهذه اللغة ، حريصة عليها ، وفي نفس الوقت ، فإن هذه اللغة تمثل رابطاً حضارياً قوياً بين أبناء المنطقة العربية ، وهذا الرابط هو مانسميه باسم القومية العربية ، وهو مايرفض الدكتور لويس

عوض الاعتراف به رغم وفرة الأدلة الحضارية والتاريخية التي تثبته وتؤكده .

نعود بعد ذلك إلى استعراض هذه المحاولات القديمة لفرض اللهجة العامية في مصر ـ حديثاً وكتابةً ـ لتصبح لغة جديدة تحل محل اللغة العربية .

ولعل أول كتاب ظهر في هذا المجال هو كتاب المستشرق الألماني « ولهلم سبتا » ، وكان يعمل في مصر في أواخر القرن الماضي مديراً لدار الكتب المصرية ، وقد أصدر هذا المستشرق كتابه سنة ١٨٨٠ وسماه باسم « قواعد العربية فى مصر » ، وقد كتبه باللغة الألمانية وفى سبيل الوصول إلى قواعد اللغة العربية العامية في مصر ، عاش هذا المستشرق في حي شعبي « لكي يستقي اللغة العامية ، من منابعها الأصيلة ، وأنه كان يدون مايسمعه بأذنه على كم قميصه ، خوفاً من أن يلاحظ أحد المتكلمين ، فيفقد طبيعته وحريته في الكلام » .

ثم يعلن المستشرق « سبتا » هدفه من كتابه فيقول : « وأخيرا سأجازف بالتصريح عن الأمل الذي راودني على الدوام طيلة مدة جمع هذا الكتاب ، وهو أمل يتعلق بمصر نفسها ، ويمس أمراً بالنسبة إليها ، وإلى شعبها ، يكاد يكون مسألة حياة أو موت ، فكل من عاش فترة طويلة ، في بلاد تتكلم العربية يعرف إلى أي حد كبير تتأثر كل نواحي النشاط فيها بسبب الاختلاف الواسع بين

لغة الحديث ولغة الكتابة ، ففي مثل تلك الظروف ، أي وجود الاختلاف الواسع بين لغة الحديث ولغة الكتابة ، لايمكن مطلقاً التفكير في ثقافة شعبية ، إذ كيف يمكن في فترة التعليم الابتدائي القصير أن يحصل المرء على نصف معرفة بلغة صعبة جداً ، كاللغة العربية الفصحى ، بينما يعاني الشباب في المدارس الثانوية عذاب دراستها خلال سنوات عدة دون أن يصلوا إلى شيء ، اللهم إلا نتائج لاترضي بتاتاً ، وطريقة الكتابة العقيمة ، أي بحروف الهجاء المعقدة ، يقع عليها بالطبع أكبر قسط من اللوم في كل هذا » .

« ومع ذلك ـ مع صعوبة اللغة العربية والكتابة بها ـ فكم يكون الأمر سهلاً لو أتيح للطالب أن يكتب بلغة هي من الغرابة بالنسبة إلى الجيل الحالي من المصريين ، مثل غرابة اللغة اللاتينية بالنسبة إلى الإيطاليين ، أو مثل غرابة اللغة اليونانية القديمة بالنسبة إلى اليونانيين » .

ويواصل المستشرق « سبتا » هجومه على اللغة العربية الفصحى ، فيقول بأن هذه اللغة لايمكن أن ينمو معها أدب حقيقي ويتطور ، كما أن هذه اللغة الفصحى عبء خطير على رجل الشعب العادي لأنه « إذا احتاج إلى كتابة خطاب أو تنفيذ وثيقة ، فإن عليه أن يضع نفسه وهو مغمض العينين تحت يدي كاتب محترف » ثم يقول « سبتا » بعد ذلك : « لماذا لايمكن تغيير هذه الحالة المؤسفة ؟ ببساطة لأن هناك خوفاً من تهمة التعدي على حرمة الدين ، إذا تركنا كلياً لغة القرآن ، ولكن لغة القرآن لايكتب

بها الآن في أي قطر ، فأينما وجدت لغة عربية مكتوبة فهي اللغة العربية الوسطى أي لغة الدواوين » .

ثم يقترح « سبتا » « اقتراحاً عملياً » هو أن تبقى اللغة العربية الفصحى « لغة الصلاة والطقوس الدينية فقط » ثم يقول أخيراً :

« وهل كانت اللغة الإيطالية تبدو أكثر إرهاصاً أو « تبشيراً » بمستقبل عظيم ، حينما كتب بها دانتي الكوميديا الإلهية ؟ أو ليس من السهل أن تقوم هيئة من كبار العلماء في مصر بذلك العمل ، « أي بوضع قواعد للعامية » فتؤدي هذا العمل على نحو أحسن مما أفعله - أنا الأجنبي - الذي لم يبد لي الأمر من الصعوبة بحيث لايمكن تناوله ؟ » .

هذه هي دعوة « سبتا » الألماني التي تبعتها دعوات أخرى في نفس الاتجاه ، وأود أن أسجل قبل مواصلة الحديث عن هذه الدعوات ملاحظة بسيطة ، هي أن الحجج التي اعتمد عليها « سبتا » في دفاعه عن العامية المصرية ، وفي الدعوة إلى جعلها لغة مستقلة تحل محل العربية ، هي في معظمها ، الحجج نفسها التي اعتمد عليها الدكتور لويس عوض حين نادى بهذه الدعوة نفسها في مقدمة ديوانه الشعري « بلوتو لاند » سنة ١٩٤٧ . وهي الدعوة التي يستند إليها الدكتور لويس عوض اليوم لإثبات استقلال القومية المصرية تماماً عن القومية العربية ، فيردد معظم الحجج الأساسية في هذه الدعوة القديمة ، دعوة المستشرق الألماني « سبتا » .

وبعد « سبتا » الألماني جاء مستشرق انكليزي آخر هو « وليم ويلكوكس » الذي شن حرباً شعواء على اللغة العربية ، وقام بمحاولة واسعة لتشكيك المصريين فيها ، واعتبر أن المصدر الأساسي لتخلف المصريين هو اللغة الفصحى ، وقال إن اللغة المصرية لاعلاقة لها باللغة العربية ، ولكنها على علاقة باللغة « البونية » التي هي أساس لغة الحديث في مصر ، وهي لغة دخلت مصر قبل أن تدخلها العربية الفصحى بألفي سنة ، وأنها انحدرت إلى المصريين من الهكسوس الذين أقاموا في مصر نحو خمسمائة سنة ، أما اللغة الفصحى ، فهي في رأى « ويلكوكس » لغة مصطنعة ، يتعلمها المصري كلغة أجنبية ثقيلة في كل شيء ، إن وصلت إلى الرأس فهي لاتصل إلى القلب أبداً ، وهي لغة تقف عقبة في سبيل تقدم المصريين ، دراستها نوع من السخرية العقلية ، حالت بين المصريين وبين الابتكار ، وقضت على الطلبة النابهين من المصريين والذين كان يرجى منهم نفع كثير ، وأدت صعوبة فهمها إلى حدوث بعض الكوارث التي شاهدها « ويلكوكس » أثناء إقامته في مصر . ثم يقول « ويلكوكس » :

« إن دراسة العربية الفصحى مضيعة للوقت ، وموتها محقق كما ماتت اللاتينية » .

ويتحدث « ويلكوكس » بعد ذلك عما يسميه بتجربته الشخصية ، وكان « ويلكوكس » يعمل مهندساً للري في الحكومة المصرية ، وعن هذه التجربة الشخصية يقول :

« قضيت عشر سنوات عندما كنت في خدمة الحكومة المصرية ، وأنا أشرف على مدرسة الهندسة وأمتحن طلبتها ، وكنت أجد بين الطلبة من يعدون حقاً من الأذكياء ، ولكنهم كانوا يسيرون في درسهم ببلادة لأنهم كانوا يقرأونها بالفصحى المصطنعة بدلاً من أن يقرأوها باللغة المصرية الحية ، وكانوا لايجدون أدنى مشقة في فهم الرياضة النظرية ، فإذا طولبوا بالتطبيق عادت اليهم روح السخرة الذهنية ، وكان ذوو الذكاء ينتهون في آخر الأمر إلى لاشيء . . أقول هذا عن أصدقاء ومعارف كان يمكنهم أن يتبوأوا مركزهم بين مهندسي العالم في الأقطار الأخرى ، لولا أنهم كانوا يفكرون بلغة ، ويكتبون بلغة أخرى . أجل ، إن اللحم والدم لايستطيعان القيام بهذا المجهود ، ربما كانا ـ أي الدم واللحم ـ يستطيعانه لو كان لكل منا رأسان ، ولكن الواقع أن لكل منا رأساً واحداً ، وهذا الرأس المسكين لايجد له مجالاً في مصر ، فلقد عرفت في هذه البلاد شابين ذكيين كان في وسعهما أن يظهرا في هذا العالم ، ويتركا طابعيهما فيه لو أنه أتيح لهما أن يكتبا باللغة التي يتكلمان بها كما نفعل نحن الغربيين ـ ولله الحمد ـ في غرب أوروبا ووسطها ، وفي أمريكا ، وفي سائر الأقطار ، حيث يفكر الناس ويبتكرون ويؤدون ماقضى الله به من عمل في هذا العالم » .

ثم يقول « ويلكوكس » :

« وفي السنين الأولى للانجليز في مصر حدث خطأ في قراءة خطاب انتهى بحدوث انبثاق في قناة من قنوات الري . وعند

التحقيق قال مهندس المركز إن الباشمهندس أرسل إليه خطابا لم يستطع أحد في البلدة قراءته ، ولما سئل الباشمهندس أجاب أن مدارس الحكومة تجعل من الطلبة بهائم حتى أنهم لا يفهمون العربية الفصحى التي يكتب بها خطاباته ، فإلى هذا الحد المؤسف يبلغ بالناس حب اللغة العربية في هذه البلاد » .

ثم يقول « ويلكوكس » بعد ذلك :

« ليمض المصريون عشر سنوات في التعليم باللغة التي يتحدثون بها ، وعندئذٍ سيبزغ فجر جديد في حياتهم ، وستتخلص الطبقات المثقفة من السخرة العقلية التي دامت أربعة آلاف من السنين ، كما تخلص الفلاحون من السخرة البدنية التي دامت ستة آلاف من السنين ، نعم سيبزغ فجر جديد على المدارس في هذه البلاد ، كما بزغ على بيوت الفلاحين وأكواخهم ، وستصير مصر شيئاً أكبر من كونها أغنى بلد زراعي في العالم ، ومنذ أربعمائة سنة تخلصت انكلترا من اللغة اللاتينية الأكاديمية نهائياً ، واستخدمت لغتها القومية ، ونهضت الأمة كما ينهض رجل قوي بعد سبات ، وسجل اسم « وليم شكسبير » في صحيفة فجرها الجديد ، وهذا لم يمنع الباحثين من دراسة اللاتينية الكلاسيكية الحقيقية ، ومصر ستتخلص من لغتها العربية الأكاديمية ، وستستخدم لغتها القومية ، وستنهض كما ينهض الرجل القوي بعد سبات ، وستجدد شبابها الذي عرفه العالم ، وستتمتع في عالمها الجديد بفكر مبتكر ، وستأخذ نصيبها الكامل من ثروة العالم العقلية ، وهذا لن

يحول بين الباحثين وبين دراسة العربية الكلاسيكية ، ولكنه سيتيح لمصر أن تأخذ مكانتها بين أمم العالم المتقدمة في الأعمال وفي التجارة وفي المهن » [1] .

تلك كلها نماذج من الآراء التي ظلت تتردد في مصر منذ أواخر القرن الماضي ، أي مع ظهور الاحتلال الانجليزي لمصر ، وهناك عشرات من الآراء الأخرى التي تشبهها وتعتبر امتداداً لها ، وقد خرج من قلب هذه الآراء دعوات أخرى عديدة ، من بينها الدعوات المتعددة إلى كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية ، كما فعلت تركيا منذ حوالى خمسين سنة وفي عهد مصطفى كمال أتاتورك ، حيث تم تغيير الحروف العربية التي كان الأتراك يكتبون بها لغتهم إلى الحروف اللاتينية التي يكتب بها الأوروبيون لغاتهم المختلفة ، وقد قام أحد الأدباء اللبنانيين وهو « سعيد عقل » ، بترديد نفس الدعوة ، وأنشأ مطبعة هي الأولى من نوعها في الوطن العربي ، وذلك لكتابة اللغة العربية باللاتينية ، مع إضافة بعض الحروف الجديدة إليها ، وفي هذه المطبعة طبع « سعيد عقل » بالفعل عدداً من كتبه ، من بينها ديوان شعر بالعامية اللبنانية هو « يارا » ، وهكذا وصل « سعيد عقل » بهذه النظرية إلى أقصى مداها ، حيث جعل من هذه الدعوة : مطبعة تطبع وكتباً تظهر للناس ، وحيث جمع بين كتابة اللغة

---

١ ـ هذا النص والنصوص التي سبقته في هذا الفصل مصدرها كتاب « الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر » للدكتورة نفوسة زكريا ، وهو كتاب بالغ العمق والقيمة والأهمية في هذا المجال .

العـربية « بالحـروف اللاتينية واللهجة العامية » معاً ، وقد أنشأ « سعيد عقل » « جائزة مالية » سنوية كبيرة ، لمن يكتب بهذه اللغة العامية اللبنانية ، وبهذه الحروف اللاتينية .

ومع ذلك كله ، فإن هذه الدعوة ـ في مصر ولبنان معاً ـ لم تحقق أي نجـاح له قيمـة ، بسواء من النـاحية النـظرية ، أو النـاحية العملية ، ولم يتجـاوب معها الرأي العام في الوطن العربي ، بل عارضها ووقف ضدها ، أو أهملها لتذبل وحدها في أبسط الأحوال .

ونحن لانظلم معظم أصحاب هذه الدعوات عندما نقول إنهم كانوا جميعاً يرون أن عملهم هو جهد على طريق إنشاء القوميات المستقلة عن القومية العربية ، وهو جهد يعبر عن الرفض للوحدة العربية التي تجمع بين أبناء البلاد الناطقة بالعربية من الخليج إلى المحيط .

ولنتوقف بعد ذلك عند الأدلة التي تبرهن على خطأ ماينادي به هؤلاء العلماء والأدباء ، وخاصة مانادي به المستشرقون الأجانب من أن اللغة العربية هي سبب تخلف المصريين في مجال الحضارة الحـديثة ، وماتبع ذلك من ترديد لجوهر هذا الرأي عند الدكتور لويس عوض وغيره من المفكرين العرب :

١ ـ كل هؤلاء العلماء يخلطون تماماً بين مايسمونه « صعوبة اللغة العـــربية » ، وبـــين مشكلة « الأمية » ، ولـولا هذا الخلط

SAYID YAÇL

Yara

ceyr

غلاف ديوان « يارا » للشاعر اللبناني سعيد عقل والديوان مكتوب بالعامية اللبنانية والحروف اللاتينية التي أجرى عليها الشاعر بعض التعديل .

المقصود أو غير المقصود لعرف هؤلاء جميعاً بأن الأمية هي التي أدت إلى التدهور العقلي لمصر ، والأمية نفسها ناتجة عن الطغيان والاستبداد والاستعمار وسائر « الأوبئة الحضارية » التي أمسكت بخناق مصر خلال قرون عديدة .

٢ ـ عندما أتيح لبعض أبناء مصر أن يتعلموا بطريقة سليمة ، نبغ الكثيرون في مختلف العلوم العصرية ، دون أن تكون اللغة العربية عائقاً من عوائق تقدمهم العلمي ، فقد كان في مصر علماء كبار من أمثال مصطفى مشرفة ، عالم الرياضة العظيم ، ومحمد كامل حسين ، أحد نوابغ أطباء العظام ،

وكان في نفس الوقت من علماء اللغة العربية العاشقين لها ، العارفين بقيمتها والذين قدموا في مجال دراستها اجتهادات بارزة تضمها كتبه ، ومجلة مجمع اللغة العربية ، وكان هناك الدكتور أحمد زكي أحد كبار علماء الكيمياء البارزين وأحد الذين نبغوا في دراسة اللغة العربية ، وعبروا بها عن العلم أجمل تعبير ، وله موسوعة علمية فريدة في قيمتها من ناحية العلم واللغة معاً ، وهناك الدكتور نجيب محفوظ أحد أطباء أمراض النساء اللامعين الذين اعترفت بهم جامعات أوروبا ، وكان أحد العارفين باللغة العربية المحبين لها ، وكتابه « حياة طبيب » هو تحفة أدبية حقيقية ، وهو كتاب يشهد على أن اللغة العربية لم تكن عائقاً في وجه هذا العالم الكبير ولا في وجه علمه وتخصصه الطبي .

٣ ـ لم تعق اللغة العربية ـ خلال ازدهار حضارة العرب ـ نبوغ الأطباء وعلماء الرياضة والكيمياء والجغرافيا والاجتماع الذين اعترف بهم العالم كله في عصرهم وبعد عصرهم من أمثال « ابن سينا » و « البيروني » و « ابن الهيثم » و « الرازي » و « ابن خلدون » وغيرهم من العظماء الذين أنجزوا الكثير في مجال العلوم الإنسانية ، وسجل لهم العلماء الأجانب قبل العرب مكانة بارزة في تاريخ العقل الانساني والتقدم الحضاري .

٤ ـ إن القول بأن اللهجة العامية المصرية على رأي المستشرق

« ولمور » هي « لغة جديدة لها طابعها الخاص » وأنها تختلف عن الفصحى تمام الاختلاف ، سواء في تراكيبها النحوية أو في مفرداتها ، وأنها ترتبط بفروع أخرى من اللغات السامية مثل السريانية والعبرية أكثر من ارتباطها بالعربية ، مثل هذا القول لايقوم في مجمله على أي أساس علمي ، ولايحتاج إلى جهد كبير في التدليل على خطئه ، فاللهجة العامية المصرية ـ كما أشرنا في الفصل السابق ـ هي في معظم مفرداتها لغة عربية تقوم على « التسكين » في آخر الكلمات ، وعلى إبدال بعض الحروف ببعضها أحياناً ، والذي يحدث ـ علمياً ـ مع زيادة التعليم ، هو أن اللهجة المصرية تقترب شيئاً فشيئاً من اللغة العربية الفصيحة .

٥ ـ لم يظهر في الثقافة العربية تزمت صارم يقف في وجه تطوير اللغة العربية كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، أو يقف في وجه إضافة كلمات جديدة إلى هذه اللغة ، وفي القاموس الذي أصدره المجمع اللغوي بالقاهرة اعتراف بالكثير من ألفاظ العلوم العصرية ، والحضارة الحديثة مثل التليفون والتلفزيون وما إلى ذلك من الألفاظ ذات الأصل الأجنبي ، كما أن الثقافة العربية قد اعترفت ـ دون تعصب أو تشنج ـ بالأدب الشعبي كلما كانت هناك نماذج جيدة لهذا الأدب ، كما حدث في الأندلس حيث أصبح « الزجل الأندلسي » جزءاً من التراث الأدبي العربي ، وكذلك الأمر بالنسبة للأدب الشعبي

المعاصر الذي يعيش ويظهر مطبوعاً في كتب ، ويجد مجاله من القراءة والدراسة والاهتمام ، دون أن يصاحب ذلك أو يبرره أي دعوة لإلغاء اللغة العربية الفصحى من أجل الاعتراف بهذا الأدب الشعبي .

٦ ـ هناك لغات أخرى أكثر صعوبة وتعقيداً من اللغة العربية وغيرها من اللغات ، ومع ذلك لم تقف هذه اللغات أبداً في وجه التطور الضخم الذي حققته الشعوب الناطقة بهذه اللغات ، مثل اللغة اليابانية واللغة الصينية وكلتاهما من اللغات الصعبة المعقدة والعويصة ، ومع ذلك فقد انطلق اليابانيون والصينيون ، في طريق الحضارة العصرية بخطوات قوية واسعة ، فالقول بأن صعوبة اللغة العربية هو سبب تخلف العرب المعاصرين ، هو قول باطل على هذا الأساس ، فلم يتخلف شعب بسبب لغته ، وإنما العكس هو الصحيح ، فاللغة تتقدم إذا ارتقى الشعب وتتخلف مع تخلفه .

٧ ـ هناك درس يجب أن نتعلمه ، من « اسرائيل » فقد قامت اسرائيل بإحياء لغة « ميتة » هي اللغة العبرية ، وجعلت منها لغة لكل العلوم العصرية ، ولم يمنع ذلك اسرائيل من تحقيق تقدمها العلمي الذي نعترف به لها . فقد دخلت اسرائيل المجال النووي وتقدمت فيه ، كل ذلك رغم أن اللغة العبرية أضعف بكثير من اللغة العربية ، وكانت العبرية تعتبر في

حكم اللغة الميتة خلال قرون عديدة وطويلة من الزمان ، بينما لم تمت اللغة العربية يوماً واحداً منذ أكثر من ألف وخمسمائة سنة متواصلة ، كانت فيها لغة مكتوبة ومقرءة ومستخدمة ، واللغة العربية بذلك تعتبر أقدم لغة حية في تاريخ اللغات العالمية على الإطلاق ، فاللغات العالمية المعاصرة الحية ، لا يزيد عمرها على خمسمائة سنة ، بينما اللغات القديمة قد ماتت ، وتقف العبرية كحالة خاصة ، إذ إنها كانت قد ماتت خلال عشرات القرون الماضية ثم أعيد إحياؤها ، من جديد لغرض سياسي ، هو خلق ملامح قومية للشخصية الاسرائيلية .

٨ ـ وأخيراً فهناك اعترافات عديدة بامتياز اللغة العربية من جانب بعض العلماء الغربيين المعروفين ، ومن بين هؤلاء المستشرق الإيطالي « نيللينو » الذي رفض الدعوة إلى تغيير الحروف العربة وإحلال الحروف اللاتينية محلها وقال :

« إن الخط العربي يمتاز بميزة فذة فهو قريب مما يسمى بالاختزال ، والخط العربي ليس بحاجة إلى الإختزال » .

ثم سجل « نيللينو » ملاحظة ممتازة حيث قال : « وإذا افترضنا أن المنفعة في إبدال الخط العربي ، لكان من الضروري أن يسبق هذا اتفاق بين الشعوب الناطقة بالضاد ، ولو كانت مصر وحيدة في اختيار الحروف اللاتينية

بدلاً من الحروف العربية فيكون هذا سببا في انشقاق الوحدة العربية ، لأنها قائمة على وحدة اللغة ، والآن ، فإن مصر هي مركز الآداب والعلوم العربية في العالم الإسلامي ، فإذا تغيرت الحروف العربية تخسر مصر هذا المركز الممتاز » .

ومـايقوله « نيللينو » عن الحروف العربية يمكن أن يقال بنصـه عن الـدعـوة إلى استخدام العامية المصرية بدلاً من العربية الفصيحة ، كلغة للكتابة والتعبير ، وتسجيل الآداب والعلوم والفنون .

وهكذا نجد أن تشبيه الدكتور لويس عوض للغة العربية باللغـة الـلاتينية القـديمـة من حيث علاقتهـا باللهجـات العامية ، هو تشبيه لا يستقيم من الناحية العلمية ولا الناحية العملية . لقد فشلت المحاولات العديدة لتحويل اللهجات العامية العربية إلى لغات مستقلة عن اللغة الفصحى ، ولم تفشـل هذه المحـاولات في أوروبـا حيث حلت اللهجـات العـامية مكـان اللغـة اللاتينية ، وأصبحت هذه اللهجات لغـات مستقلة بذاتهـا ، وفشـل هذه المحـاولات في البلاد العربية رغم مابذل في سبيل ذلك من جهود كبرى يدعونا إلى التعرف على السبب الجوهري ، وراء ذلك ، وهو أن عوامل الوحدة والارتباط بين أبناء البلاد العربية ـ وعلى رأسها مصر ـ أقوى من عوامل التفرقة والانفصال والتباعد .

وهكذا لايمكن التسليم برأي الدكتور لويس عوض في

تشبيه البلاد العربية بالبلاد اللاتينية « فرنسا وإيطاليا وأسبانيا والبرتغال » ، اللهم إلا إذا استطعنا أن نفصل اللهجات المحلية ، ونجعل منها لغات مستقلة تمام الاستقلال ، ولو استطعنا أن نفعل ذلك ـ ولن نستطيع ـ لصح ما يقول به الدكتور لويس عوض ، من أن الوحدة القومية في هذه المنطقة هي وحدة كل بلد عربي على حدة « أي قومية مصرية وأخرى مغربية ، وثالثة عراقية . . الخ » ، والصحيح أن وحدة هذه المنطقة ـ مع الاعتراف بالتنوع والاختلافات الجزئيه ـ هى وحدة القومية العربية التي تربط بلاد هذه المنطقة من الخليج إلى المحيط ، وسكان هذه البلاد يرتبطون بلغة واحدة هي اللغة العربية الفصحى ، ولهم لهجات محلية متعددة ، هي في سبيلها ـ مع الزمن وقوة الاتصال بين السكان العرب المختلفين ـ إلى الاقتراب من بعضها البعض ، والاقتراب من العربية الفصحى ، وليس صحيحاً من الناحية العلمية ، أن هذه اللغة العربية الفصحى كانت سبباً لتدهور العرب خلال القرون الأخيرة ، فقد استوعبت هذه اللغة الفصحى كل الازدهار العربي الحضاري الكبير في العصور الأولى . فلماذا نلصق باللغة العربية ماكان نتيجة للاستعمار وماصحبه من استبداد وطغيان وانقسام ، وتخلف عقلي واقتصادي وحضاري ؟ . . لاتظلموا اللغة العربية ولاتنسبوا إليها كل مالا يقبله العقل ، ولايرتضيه الاحتكام إلى التاريخ .

إن اللغة العربية لايمكن أن تكون سبباً للازدهار ـ قديماً ـ وسبباً للانهيار ـ حديثاً ـ ذلك تناقض يرفضه أبسط ألوان المنطق العقلي . فلتتوحد الأمة الغربية ، ولتنهض هذه الأمة وسوف تجد من لغتها الفصحى وسيلة قابلة للتطور ، وأداة طيعة للتعبير عن علوم العصر وآدابه وفنونه ، ولنبحث عن أسباب تخلفنا وتمزقنا في المكان الصحيح ، فإلقاء العبء على اللغة العربية إضاعة للجهد ، وصرف للانتباه إلى عدو وهمي لاوجود له فى هذه اللغة الحية القادرة على التعبير الحضارى كما ثبت فى مراحل سابقة من التاريخ .

وهنا لابد من الإشارة إلى أن أحداً لايحق له أن يقول بأن اللغة العربية خالية من العيوب ، سواء في كتابتها أو في نحوها وصرفها ، فذلك أمر غير صحيح ، لأن هناك عيوباً في اللغة العربية ، وهناك صعوبات قائمة فيها شكلاً وإعراباً . ولكن هذه العيوب كلها يمكن ـ بل يجب ـ تعديلها من داخل اللغة العربية نفسها ، في عملية تطوير وإصلاح لغوي ، دون الحاجة إلى هدم اللغة العربية وتدميرها من الأساس .

بين العروبــة والإســـلام

« أنا مسلم وطناً ومسيحى ديناً »

مكرم عبيد

الزعيم السياسي المصري

إذا حاولت رفع الضيم فاضرب
بسيف محمد واهجر يسوعا
أحبوا بعضكم بعضاً وعظنا
بها ذئباً فما نجّت قطيعا

الشاعر اللبناني المسيحي

رشيد سليم الخوري

كان للإســلام دور كبـير في خلق مانسميه الآن باسم « الأمة العربية » ، وإذا تركنا البحث في الإسلام كديانة سماوية ، ونظرنا إليه كقوة حضارية ، فسوف نجد أن الإسلام قد حقق عدداً من النتائج المهمة في هذا المجال .

فقد استطاع الإسلام أن يوحد القبائل العربية التي كانت موجودة في جزيرة العرب عند ظهور الإسلام ، فالجزيرة العربية لم تكن مجتمعاً موحداً ، بل كانت مجموعة من القبائل المختلفة ، وكانت هذه القبائل تتصارع وتدخل في حروب عنيفة مع بعضها البعض لأسباب اقتصادية أو سياسية ، أو بسبب تحريض أمم غير عربية مثل الفرس والرومان لبعض هذه القبائل ضد بعضها الآخر ، أملاً في فرض نفوذ الفرس أو الرومان على الجزيرة العربية .

ولكن الإسلام وحد الجزيرة العربية ، ووحد قبائل الجزيرة ، وجعل منها شعباً واحداً ، وقد تمت حركة التوحيد هذه خلال ربع قرن منذ ظهور الإسلام وحتى انتهاء حروب الردة في عهد « أبي بكر الصديق » ، وكانت « الردّة » هي آخر محاولات « النظام القديم » في الجزيرة العربية للاستمرار ، على أساس وحدة القبيلة ، لا على أساس وحدة العرب جميعاً .

وقد أثبتت الدراسات التاريخية أن « الردّة » كانت مزيجاً من الميل عند بعض القبائل العربية للعودة إلى استقلالها الخاص الذي كان متحققاً لها قبل الإسلام ، ومن التحريض الخارجي من جانب الفرس والرومان الذين أدركوا أن وحدة الشعب العربي في الجزيرة تمثل خطراً واضحاً على امبراطورية فارس وامبراطورية الروم ، واقترنت حركة « الردة » التي كان هدفها تقويض أركان الديانة الجديدة والدولة الواحدة التي حلت ـ بعد الإسلام ـ محل القبائل

المتفرقة ، بظهور زعامات من نوع غريب هي زعامات « الأنبياء الكـذابـين » أو « أدعياء النبـوة » ، وكـان من بينهم « الأسـود العنسي » في اليمن ، وقد ظهر بمساعدة الفرس ، وامرأة ادعت النبـوة في العـراق وكان اسمها « سجاح » وقد ظهرت بمساعدة الفرس أيـضاً وتحالفت مع « مسيلمة الكذاب » ، أما على حدود الشـام فقـد ظهر « طليحة الأسدي » بمساعدة الرومان ، وكان هؤلاء جميعاً زعماء حركات انفصالية ضد الوحدة العربية التي أقامها الإسلام في جزيرة العرب .

وقد كان هؤلاء « الأنبياء الكذابون » يستمدون العون والسلاح من قوى أجنبية معـارضـة لوحـدة العـرب ونهضتهم ، وكـانـوا يستخدمون طريقة الادعاء بأنهم أنبياء لمقاومة دعوة الإسلام ـ كما تصـوروا ـ بنفس الأسلوب ونفس السـلاح ، وقـد انتهت هذه الدعوات تماماً وانهارت ، عندما تصدى لها « أبو بكر الصديق » ، بحـزم وحسم ، ولم يعـرف الـتردد لحظة واحـدة في مواجهة هذه الحركات ، ولم يقبل المساومة معها على شيء قليل أو كثير ، وظل يطاردهـا في داخـل الجـزيرة العـربية ، ثم على الحدود الفارسية والرومانية معاً بعزم لايلين ، حتى أنقذ الإسلام وماتبعه من توحيد للقبـائـل العربية في شعب واحد غير ممزق ولامتفرق ، من هذه الحركة الخطرة التي يمكن أن نطلق عليها باصطلاحات العصور الحديثة اسم « الثورة المضادة » أو « الحركة الانفصالية » التي كانت موجهة ضد الإسلام ووحدة العرب معاً .

وهكذا حقق الإسلام وحدة القبائل داخل الجزيرة العربية ، وجعل من هذه القبائل شعباً واحداً ، وقد تحققت هذه الوحدة بين القبائل العربية ، بفضل الإسلام ، فقد كانت هناك قبائل عربية على حدود الشام تدين بالمسيحية فبقي جزء منها على دينه ، وإن كانت قد اندمجت مع الشعب العربي الذي توحد بالإسلام ، ومن هنا يمكننا أن نقول إن ميلاد العرب كشعب واحد قد تأثر بالإسلام ، وقد امتد هذا الأثر على القبائل العربية جميعاً ، سواء منها الأغلبية التي أسلمت ، أو الأقلية التي بقيت على ديانتها المسيحية .

ومن ناحية أخرى نجد أن الإسلام قد أعطى لهذا الشعب العربي الجديد الموحد رسالة إنسانية كبرى ، دفعته إلى الانطلاق خارج حدود الجزيرة العربية لنشر هذه الرسالة من ناحية ، ولتأمين وجوده من ناحية أخرى ، فالشعب الجديد كان يشعر أنه لن يسلم من تآمر الفرس والرومان ، وهما أقوى امبراطوريتين في العالم في ذلك الوقت ، وقد كانت الرسالة التي يحملها العرب مختلفة تمام الاختلاف ، عما كان يحمله الفرس والرومان إلى الدول الخاضعة لنفوذهم . فقد كان الفرس والرومان دولتين استعماريتين بكل معنى كلمة الاستعمار كما نفهمها في العصر الحديث ، حيث كان هدف الفرس والرومان من استعمار الشعوب المختلفة الخاضعة لنفوذهم هو الحصول على خيرات تلك البلاد ، والسيطرة على أهلها بالقوة ، واستخدامهم فيما يفيد الفرس والرومان اقتصادياً أو

عسكـرياً أو سياسياً ، أما العرب فقد انطلقوا إلى خارج الجزيرة العربية ، وفي يدهم رسالة حضارية وإنسانية ، تدعو إلى العدل والمساواة وكرامة الإنسان ، وعدم الإكراه في العقيدة ، بأي صورة من الصـور . وهم لم يدخلوا البـلاد التي فتحـوها مثل « العراق والشام ومصر والمغرب » كطبقة حاكمة منعزلة ، كما فعل الفرس والرومان ، بل دخلوها كقوة بشرية اندمجت مع السكان الأصليين واختلطت بهم وشاركتهم فى ظروف حياتهم وسمحت لهم بالظهور والـبروز والتعبـير عن مواهبهم وأعـطتهم الحـرية في الانتـماء إلى الإسلام والإيمان به ، أو الاحتفاظ بأديانهم القديمة .

وقد كان من أثر هذه الرسالة الحضارية والإنسانية التي انطلق بها العرب بعد توحيدهم إلى خارج جزيرتهم العربية ، أن معظم الشعـوب التي فتـح المسلمون بلادها استقبلت الفتح الإسلامي بالـترحيب ، كما تم انـدماج هذه الشعوب مع العرب بسهولة ، كذلك دخلت هذه الشعوب الجديدة في الدين الإسلامي بدون ضغط أو ارهاب ، وقد ازداد رعايا البلاد التي فتحها العرب ـ كما يقول محمد فريد أبو حديد في كتابه « أمتنا العربية » ـ : « ثقة في العرب لما لمسوه من اعتدالهم ونزاهة مسالكهم معهم أثناء الحرب ، فلم يؤخذ على جنودهم مايؤخذ على الجنود المنتصرة من الزهو أو الإفســاد في الأرض ، أو الاعتــداء على الأنفس أو الأعـراض المصـونة ، وكانت أوامر الخليفتين « أبي بكر » و « عمر » صريحة وصارمة تحض على التمسك بقواعد الإسلام في مروءة الحرب » .

وينقـل « أبـو حديد » في كتـاب « أمتنـا العربية » أيضاً عن الـطبري ، وهو مؤرخ إسلامي كبير « حادثة وقعت أثناء حروب الفتح في مصر وهي حادثة لها دلالتها الكبرى على شعور أهل مصر نحو العرب ومسلك العرب نحوهم ، فقد أخذ العرب في بعض مواقـع القتـال في مصر بعض السبـايا من أهـل البلاد ، فبعث صاحب الاسكندرية إلى قائد العرب وعمرو بن العاص يطلب إليه أن يردهم ، فأرسل القائد إلى الخليفة عمر يستطلع رأيه في ذلك ، فبعث إليه عمـر أن يخير هؤلاء السبـايا بين الإسـلام والبقاء مع العرب ، وبين العودة إلى قومهم ، فمن اختار الإسلام فهو من المسلمين ، له ماهم وعليه ماعليهم ، ومن اختار العودة إلى قومه وضع عليه من الجزية مايوضع على مثله ، فجمع العرب السبايا ليخـبروهم كما أشـار عمـر ، ووقف العرب والمصريون ينتظرون نتيجة التخيير ، فكانوا إذا اختار أحد السبايا الإسلام والبقاء مع العرب كبر العرب تكبيرة عالية ، ثم حازوا الرجل إليهم ، وإذا اختار الرجل العودة إلى قومه صاح المصريون صيحة فرح وحازوا صاحبهم إليهم » .

ثم يذكر الطبري إسم شاب من المصريين الذين كانوا في ذلك الوقت بين السبايا وهو « أبو مريم » ، « فلما خير في الفريق الذي ينضم إليه اختار الفريق العربي فحازه العرب إليهم . وكان أبوه وأمـه وإخـوتـه واقفين في صف المصريين ، فوثبوا إليه ، وجعلوا يجاذبون العرب إياه حتى شققوا ثيابه ، وقد صار هذا الرجل فيما بعد عريفاً في جيش العرب » .

ويعلق محمـد فريد أبو حديد على الحادثة التي رواها الطبري تعليقاً سليماً واعياً فيقول : « . . . هذا الموقف لايدل على عداوة مرة بين أهل مصر وبين العرب ، كما أن المثل الذي ضربه الطبري في حالة « أبي مريم » يدل على أن وجود ذلك الشاب مع العرب مدة أسره لم يجعله يكرههم ، أو يحقد عليهم ، بل جعله يختارهم ، ويرضى بالانضمام إليهم » . ويواصل محمد فريد أبو حديد تعليقه فيقـول : « وهـذا الأسلوب الذي وصفه الطبري في تخيير هؤلاء السبايا يدل في مجمله على أن اختيار أهل مصر للإسلام ولم يكن فيه شيء من الإكراه أو الإرهاب ، فإن تكبير العرب كلما انضم أحد المصريين إلى صفوفهم كان يدل على ترحيبهم بانضمامهم إلى صفوفهم ، كما أن هتاف المصريين عندما يختار أحد السبايا الرجوع إليهم ، يدل على تعـادل الكفتـين وحرية الاختيار ، ولم يكن في الموقف كله مايدل على حقد من جانب ، أو على كبرياء وعنف من جانب آخر » .

ثم يقول أبو حديد عن الشعوب التي دخلت الإسلام ، ومنها شعب مصر : « إن هذه الشعوب أصبحت تنظر إلى نفسها بعد مضي نحو قرن من تاريخ الفتح العربي على أنها شعوب عربية ، ولها الحق في أن تسودها العدالة التي عرفتها منذ ابتداء الفتح العربي » .

وعن الثورات التي قامت بها هذه الشعوب بعد الفتح العربي يقول الكاتب بحق « إن تذمر هذه الشعوب لم يكن مبعثه كراهية

العرب ، بل كان مبعثه حرص هذه الشعوب على تحقيق العدالة ، ورفض العسف الذي ظهر به العمال « أي الحكام » الذين أساء الخلفاء المتأخرون اختيارهم »[1] .

هذه صورة واقعية مباشرة تكشف لنا عن طبيعة الرسالة الانسانية التي كان يحملها العرب عند خروجهم من الجزيرة بعد الإسلام ، وتكشف لنا أيضاً عن المستوى الحضاري الذي كانوا يتعاملون به مع الشعوب الجديدة التي فتحوها والتي أصبحت بمرور الوقت جزءاً من الأمة العربية ، حيث امتزجت هذه الشعوب بالعرب ، وفتحت قلبها لهم ، واستراحت لمبادئهم الإنسانية ، وحدث التزاوج الكامل بينهم مما جعل مؤرخاً أوروبيا كبيراً مثل « جيبون » يقول : « إن الشعوب التي كانت من قبل خاضعة لدولتى الروم والفرس أخذت تمزج دماءها بدماء العرب الوافدين عليها حتى أصبح مابين نهر الفرات والمحيط الأطلنطي أمة واحدة منتشرة على الرمال مابين آسيا وإفريقيا » .

وملاحظة « جيبون » صحيحة وهي شهادة علمية لها قيمتها وأهميتها في هذا المجال .

وبمكننا هنا أن نسجل ملاحظة أخرى عن مدى مساهمة الإسلام في خلق القوة الحضارية والإنسانية للعرب ، هذه الملاحظة تتعلق بالهكسوس الذين استعمروا مصر في الفترة الممتدة

---

١ ـ هذا النص والنصوص التي سبقته لمحد فريد أبو حديد من كتابه « أمتنا العربية ».

بين ١٧٣٠ و ١٥٧٠ قبل الميلاد ، فهناك رأي يتردد بين عدد كبير من المؤرخين يقول بأن الهكسوس كانوا من القبائل التي خرجت من الجزيرة العربية واحتلت مصر ، ولكن احتلال الهكسوس لمصر فشل تماماً ، وتم طردهم من البلاد حيث حاربهم المصريون بقيادة « أحمس » وهزموهم وخرج الهكسوس من مصر دون أن يتركوا وراءهم أثرا ثقافيا أو حضاريا له قيمة فلا المصريون تكلموا لغة الهكسوس ، ولا امتزجوا بهم أو تزاوجوا معهم على نطاق واسع ، ولا أخذوا عاداتهم الحضارية ، وإنما ظل الانفصال قائماً بين الشعبين ، حتى انتهى الأمر بطرد الهكسوس على يد المصريين .

ولكن عندما جاء العرب بعد الإسلام إلى مصر اختلف الموقف ، فقد « تعربت » مصر ، وأسلم معظم سكانها ، خلال ثلاثمائة عام بعد الفتح العربي ، وبذلك أصبح المصريون جزءاً من الشعب العربي الجديد الذي أشار إليه المؤرخ الانكليزي « جيبون » في عبارته السابقة ، وهو هذا الشعب الذي يمتد من الخليج إلى المحيط .

فلماذا فشل العرب عندما جاءوا إلى مصر في حملة « الهكسوس » ، إذا صح أن الهكسوس كانوا عرباً ، ثم نجح العرب في مصر بعد ذلك عندما فتحوها بقيادة عمرو بن العاص ، في عصر عمر ابن الخطاب ؟ .

الفرق هنا واضح :

فالهكسوس جاؤوا إلى مصر غزاة فاتحين بلا رسالة ولا قوة حضارية ولا مبادىء إنسانية ، ولذلك كان نصيبهم من شعب مصر هو العداء والرفض الكامل ، ثم الحرب وتحرير البلاد منهم .

ولكن العرب عندما جاءوا بعد الإسلام كانت معهم رسالة حضارية وإنسانية كبرى ، استجاب لها المصريون ، وتأثروا بها أعمق التأثر ، بل لقد تم الاندماج بين المصريين والعرب ، وأصبحت حضارة العرب ملكاً لمصر ، فهضمتها ، وأضافت إليها ، وجددتها ، كما فعلت الشعوب الأخرى التي دخلت في نطاق العروبة بعد الإسلام مثل : العراق ، والشام ، والمغرب ، والسودان . فالعرب جاؤوا تحت لواء الهكسوس إلى مصر ، فكانوا غزاة وأعداء مرفوضين ، وجاؤوا تحت راية الإسلام ورسالته الحضارية فامتزجوا بالسكان ، وعربوا البلاد ، واكتسبت حضارتهم قوة جديدة من انتماء المصريين إليها ، ولم تكن مساهمة المصريين في الحضارة العربية بسائر فروعها مقصورة على المصريين الذين أسلموا فقط ، فقد اشترك المسيحيون المصريون في تشكيل هذه الحضارة ، في مختلف المجالات ، ويكفي أن نشير هنا إلى أن الكثيرين من عظماء الأطباء في مصر الإسلامية كانوا من المصريين المسيحيين . وقد ذكر الدكتور عبد الرحمن زكي عدداً من أسمائهم في محاضرة منشورة له عن مشاهير أطباء القبط في مصر الإسلامية ، ومن بينهم في العصر الفاطمي « أبو يعقوب اسحق بن ابراهيم » و « سهلان ابن كيسان » و « أبو الفتح منصور بن سهلان » ، و « يوسف البطريرك » ، وأسماء أخرى كثيرة ظهرت في مصر

الإسلامية ، ومعنى هذه الظاهرة أن الحضارة العربية الإسلامية في مصر ، لم تقف في وجـه المصريين غير المسلمين ، ولم تحرمهم من التعبـير عن نبـوغهم ، وتحقيق الانجـازات العلمية والحضـارية المختلفة بغير عقبات أو مصاعب .

على أن الإسلام قد ترك أثراً أساسياً آخر ، فقد انتقلت اللغة العـربية من الجزيرة العربية لتنتشر وتمتد وتحل محل لغات أخرى قديمة ، وتصبح هي اللغة الأساسية للمنطقة التي نسميها اليوم باسم « المنطقة العربية » الممتدة من الخليج إلى المحيط الأطلسي .

وقد أصبحت هذه اللغة بالنسبة لسكان هذه المنطقة هي لغة الثقـافـة ولغـة الحياة ولغـة التفكـير والتعبـير لأكثر من ألف سنة متصلة ، وبهذه اللغة العربية ، التي دفعها الإسلام خارج الجزيرة العربية ، وحافظ عليها ـ بفضل عوامل كثيرة في مقدمتها القرآن ـ خلال هذه الفـترة الطويلة الممتدة من فترات التاريخ . . . بهذه اللغـة العربية ظهرت آلاف المجلدات والكتب في مختلف فروع الثقافة الإنسانية منذ ظهور الإسلام إلى اليوم ، وهذه الكتب هي التي تمثل مانسميه باسم « الثقافة العربية » التي هي أحد المنابع الأساسية للحضارة الإنسانية المعاصرة ، حتي في أوروبا ، والتي تعتبر قبل ذلك تراثاً مشتركاً لكل العرب الذين يعيشون بين الخليج والمحيط ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين .

والفضـل للإسـلام في هذه القـوة التي حصلت عليهـا اللغة

العربية ، فاستطاعت أن تواصل الحياة لمدة تزيد على ألف وأربعمائة سنة متصلة ، حيث ظلت خلال هذا الزمن كله لغة حية قادرة على التعبير الأدبي والعلمى ؛ والإسلام هو صاحب الفضل أيضاً في خلق هذا التراث العربي الكبير الذي نتج من جهود عدد من الشعوب التي تعربت وأصبحت جزءاً من الأمة العربية ، وتكلمت باللغة العربية ، وكتبت بها وساهمت مساهمة واسعة في المحافظة عليها وتجديدها ، ومن هنا فإن « الوجه العربي » للإسلام يعتبر ملكاً لجميع العرب مسلمين ومسيحيين ، وهذا الوجه العربي للإسلام هو المتصل باللغة والثقافة والتراث والحضارة المشتركة .

وهذا هو ماأدركه عدد من كبار المفكرين المسيحيين العرب في مصر وخارج مصر ، فالدكتور وليم سليم حنا ، وهو أحد المفكرين المصريين وأحد الوزراء السابقين يقول بوضوح :

« إن من أقوى العوامل التى تؤثر على الأفراد ، وعلى المجتمع ذلك الأثر الذي يتركه الأدب القائم في هذا الشعب ، ونحن الآن « أي المصريون » نتكلم اللغة العربية ، وأدبنا هو أدب اللغة العربية ، لا نستطيع قطعاً أن نتجاهل أثر ذلك الأدب في تكويننا ، وفي تكوين حياتنا واتجاهنا ومشاريعنا ، وانفعالاتنا في حياتنا العملية » .

ومن ناحية أخرى نجد أن الزعيم المسيحي المصري الكبير مكرم عبيد يقول عبارته المشهورة « أنا مسلم وطناً ومسيحي ديناً »

ومكرم عبيد يعني بهذه الكلمة البليغة الموجزة ، أنه « مسلم » من الناحية الوطنية أي من ناحية اللغة والتراث والعلاقات الاجتماعية والمصلحة المشتركة ، فهذه العناصر كلها خلقها الإسلام في الوطن العربي وجعل لها جذوراً في هذا الوطن ، وأصبحت ملكاً لجميع سكانه مسلمين أو مسيحيين ، وهذا هو الجانب الحضاري العام في الإسلام ، أو الجانب غير الديني ، أما الجانب الديني ، فهو ملك للمسلمين وحدهم ، وهنا يقول مكرم إنه « مسيحي ديناً » . وحتى اللغة التي يتعبد بها المسيحي العربي هي لغة عربية ، وهي التي يقرأ بها الانجيل ، كتابه المقدس ، فالمسيحي العربي يشترك مع المسلم العربي في هذا الجانب الحضاري من جوانب الإسلام ، ويفترق المسيحي العربي عن المسلم العربي بعد ذلك في الجانب الديني وحده .

وقد عبر الشاعر المسيحي اللبناني رشيد سليم الخوري عن جانب من هذا المعنى ، عندما دعا العرب إلى استخدام السلاح ضد الاستعمار الغربي ، كما فعل « محمد » في معاركه ضد المشركين ، ودعا الشاعر المسيحي أيضاً ـ في مواجهة الاستعمار ـ إلى ترك المبدأ المسيحي وهو « الله محبة » ، والمبدأ المسيحي الآخر « أحبوا بعضكم بعضاً » ، والمبدأ الثالث « من ضربك على خدك الأيمن أدر له خدك الأيسر » ، وغيرها من المبادىء النبيلة التى تقوم على التسامح والسلام والحب ، لأنها كلها مبادىء لم تعد تجدي في العالم المعاصر الذي يقوم على القوة أولاً وقبل كل شيء ،

وقد عبر الشاعر المسيحي بذلك عن أن التراث الحضارى التاريخي للإسلام ـ في غير الجانب الديني الخالص ـ هو ملك للعرب جميعاً مسيحيين أو مسلمين . يقول رشيد سليم الخوري مخاطباً الإنسان العربي الحديث ، مسلماً كان أو مسيحياً :

إذا حاولت رفع الضيم فاضرب
بسيف محمد واهجر يسوعا
« أحبوا بعضكم بعضاً » وعظنا
بها ذئباً فما نجّت قطيعا

والذئب هنا هو رمز للاستعمار .

ونخلص من هذا كله إلى أن الإسلام أعطى للعرب قوة حضارية ورسالة إنسانية كبيرة ، مما ساعد العرب على أن يتوحدوا في الجزيرة العربية بعد أن كانوا قبائل متفرقة متصارعة ، ثم ساعدهم الإسلام بعد ذلك على أن ينتشروا بين شعوب أخرى جديدة ، ويمتزجوا بها على أساس مبادىء العدالة والأخوة والمساواة والاحترام الكامل لحرية العقيدة بين الناس ، كذلك حقق الإسلام انتشار اللغة العربية ، حتى أصبحت لغة يتكلم بها ذلك الشعب العربي الجديد الذي تكون بعد الإسلام من امتزاج عرب الجزيرة بالشعوب التي تعيش بين الخليج والمحيط الأطلسي ، وبذلك أصبحت اللغة العربية هي لغة عدد من الشعوب القديمة المتحضرة ، وتحول الإبداع الحضاري لهذه الشعوب إلى اللغة

العربية فأغناها ، وأعطاها مزيداً من القوة والأصالة والقدرة على الاستمرار جيلاً بعد جيل .

هذه هي الآثار الحضارية الكبرى التي تركها الإسلام على العرب ، بعد أن اتسع معنى كلمة « عرب » ولم يعد هذا المعنى بعد الإسلام مقصوراً على أبناء الجزيرة العربية ، وهذا الجانب الحضاري الذي تركه التأثير الإسلامي على العروبة ، هو جانب يملكه جميع العرب مسيحيين ومسلمين ماداموا يتكلمون باللغة العربية ، ويستندون في حياتهم الفكرية والأدبية إلى التراث العربي ويشتركون ـ بالمصلحة الواحدة ـ مع العرب الذين خلقهم الإسلام بامتزاج شعوب عديدة مع عرب الجزيرة الأولين .

والعروبة بهذا المعنى تدين للإسلام في الجانب الحضاري ، أي اللغة والثقافة والعمران والتراث المشترك ، أما « الجانب الديني » في الإسلام فهو أمر يهم المسلمين وحدهم ، في البلاد العربية وغيرها من البلاد الإسلامية ، ودعوة القومية العربية تقيم الصلة بين العرب جميعاً على الأساس القومي والحضاري الذي ساهم الإسلام فيه مساهمة أساسية ، ولاتبني دعوة القومية العربية نظريتها على أساس الصلة الدينية بين العرب ، فالأساس الديني لم يعد أساساً سليماً لقيام الدول الحديثة ، وليست هناك دولة معاصرة قامت ـ من العدم ـ على أساس الدين سوى « إسرائيل » ، ولذلك فهي « نشاز حضاري كامل » ، لايتلاءم مع منطق العصر أو روحه ، وستظل الدعوة التي ترددت في مصر في ثورة ١٩١٩ وهي

أن « الدين لله والوطن للجميع » مبدأ في غاية الأصالة لا في مصر وحدها ، وإنما في الوطن العربي كله ، مع الاعتراف الكامل بأن « الإسلام » قد ساهم مساهمة أساسية في خلق الحضارة العربية التي ينتسب إليهـا العـرب المعـاصرون جميعـاً ، من المسلمـين والمسيحيين على السواء

المســيحيون والقومية العربيــة

يامسلمون ويانصارى دينكم
دين العروبة واحد لا اثنان
إنى على دين العروبة واقف
قلبي على سبحاتها ولساني
إنجيلي الحب المقيم لأهلها
والذود عن حرماتها فرقاني
الشاعر اللبناني المسيحي
رشيد سليم الخوري

يذكـر لنا التاريخ أنه بعد أن استقر « عمرو بن العاص » في مصر ، وبعــد أن استكمـل فتـح البـلاد حتى الاسكنـدرية ، استدعى « عمرو » الكاهن المسيحي الأكبر « الأنبا بنيامين » من صومعته التي كان يقيم فيها ، وتحدث معه وناقشه ، ثم أعطاه وثيقة بالأمان له ولسائر الأقباط وقال له : « عد إلى كنيستك وباشر أمور دينك بمنتهى الحرية » ، ويقول المؤرخون بعد ذلك إن «عمرو ابن

العاص » قال أمام الجميع إنه لم ير في حياته رجلاً من رجال الدين المسيحي أطهر وأنقى وأخلص قلباً وأشد مهابة من « البطريرك بنيامين » .

ولزيادة الإيضاح لنوع العلاقة بين المسلمين « العرب » وبين المسيحين عموماً والمسيحيين المصريين على وجه الخصوص ننقل هذه الفقرة من كتاب « أهل الذمة في العصور الوسطى » للدكتور « قاسم عبده قاسم » حيث يقول « ص ٢١ » :

« حين دخل عمرو بن العاص مصر كان المصريون الأقباط يعانون الكثير من جراء اضطهاد البيزنطيين بسبب الخلافات المذهبية بين الطرفين ، رغم أن المسيحية كانت الديانة التي اعتنقها البيزنطيون والمصريون جميعاً ، وقد أدى ذلك إلى هروب بنيامين بطريرك الأقباط واختفائه ، في مغاور وكهوف الصحراء ، ولما علم بقدوم المسلمين استبشر بزوال الحكم البيزنطي ، وطلب من أتباعه مساعدة المسلمين ،ويقال إن قبط « الفرما » ساعدوا الجيش الإسلامي بقيادة « عمرو ابن العاص » ، كما ساعدوه أثناء تقدمه لقتال الروم بالاسكندرية ، وأقام القبط الجسور والأسواق للفاتحين . وبعد انتصار المسلمين استقدم « عمرو بن العاص » بنيامين وأمنه ، فأخذ ذلك البطريرك ـ الذي قضى شطراً كبيراً من حياته في النضال ضد البيزنطيين أعداء الأقباط المذهبيين ـ يعمل بلا كلل لتقوية الكنيسة اليعقوبية ، ويعيد تأسيس الأديرة والكنائس التي هدمت قبل الفتح الإسلامي ، كما أرسل مطراناً

جديداً إلى الحبشة ، وكانت آخر أعماله تأسيس كنيسة جديدة للقديس مكاريوس في « وادي النطرون » وقد تم ذلك كله بتوجيه من الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ، وثمة أحاديث كثيرة منسوبة إلى الرسول توصي بالقبط خيراً عندما يتم فتح مصر « لأن لهم ذمة ورحماً » وأن منهم « أخوال العرب » وأنهم سيعينون المسلمين عند فتحهم البلاد وما إلى ذلك . ومهما كان نصيب هذه الأحاديث من الصحة ، فإن الروح التى تعكسها مثل هذه الأحاديث قد ظهرت في تصرفات المسلمين أثناء الفتح وبعده تجاه أهل البلاد حينذاك ، ويؤكد ذلك ماجاء في خطبة لعمرو بن العاص غداة الفتح مخاطباً جنوده : « . . . واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيراً » . وقد أعطى عمرو بن العاص للمقوقس مساحة من « بركة الحبش » لتكون جبانة للقبط ، وفي السنوات التالية سمح لهم ببناء الكنائس ، فقد بنيت كنيسة « مار مرقص » بالاسكندرية فيما بين عامي ٣٩ ـ ٥٠ هـ ، كما بنيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم في ولاية « مسلمة بن مخلد » ٤٧ ـ ٦٨ هـ . »[1] .

هذه المواقف المختلفة من جانب المسلمين العرب إزاء أقباط مصر هي البداية الحضارية السليمة التي تكشف لنا جوهر العلاقة بين المسيحيين والمسلمين في ظل الدولة العربية في مصر ، وفي غيرها من البلاد التي فتحها العرب واستقروا فيها ، وقد ظلت العلاقات بين المسيحيين والمسلمين سليمة تحكمها عدة قواعد

١ ـ أهل الذمة في العصور الوسطى ـ للدكتور قاسم عبده قاسم ـ ص ٢١ .

أساسية أقرها الإسلام ، ولم يفرط فيها أحد من المسلمين الحقيقيين المخلصين لدينهم ، وهذه القواهد هي :

أولاً : انـه لا إكراه في الدين ، وقد نص القرآن الكريم على ذلـك نصاً صريحاً واضحاً كما جاء في سورة [البقرة] حيث قال تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والله سميع عليم ﴾ .

فهنـا نص قرآني واضـح تمام الوضوح في الدعوة إلى « الحرية الـدينية » التي لامجـال فيها لفرض الإسلام على أحد من الذين يؤمنون بأديان سماوية سابقة على الإسلام ، ومن وحي هذا المبدأ الإسلامي نظر عمرو بن العاص إلى البطريرك بنامين ، وأمّنه هو والأقباط على دينهم .

ثانياً : إن الإسلام وقد جاء بعد المسيحية يكن كل الاحترام للمسيح والمسيحية ، ويعترف برسالة المسيح ، ويضعه في قائمة الرسل والأنبياء الأطهار ، بل ويشترط لصحة الإسلام ، أن يعترف المسلمـون بأن « المسيح » نبي ورسول من عند الله ، وأن كتابه كتاب مقدس ، وذلك ضمن مايفرضه الإسلام على المسلمين من ضرورة الاعـتراف برسالة الرسل ، والأنبياء الذين اختارهم الله لتبليغ رسـالتـه إلى النـاس ، وينص القـرآن الكريم أيضـاً على أسلوب المعاملة للمسيحيين وأهل الكتاب ، فيقول تعالى في سورة

[العنكبوت] : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمناً بالذي أنزل إلينا والذي أنزل إليكم ﴾ ، وقد جاء في « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير » أن عبارة « الذين ظلموا منهم » تعني « أهل الحرب ، ومن امتنع منهم عن أداء الجزية » .

ثالثاً : نص القرآن على ضرورة تحصيل « الجزية » من المسيحيين وغيرهم من أهل الكتاب إذا لم يسلموا ، والتفسير الصحيح لهذه « الجزية » هي أنها ـ كما يقول « الدكتور قاسم عبده قاسم » في كتابه الذي أشرنا إليه سابقاً وهو « أهل الذمة في العصور الوسطى » ـ : ليست في واقع الأمر سوى ضريبة دفاع على حد تعبيرنا المعاصر ، فهي مقابل مادي لما يتمتع به أهل الذمة من حماية في ديار الإسلام » ، وفي مقابل الجزية « يكون على المسلمين حماية أهل الذمة وحماية أموالهم وتعويضهم عما يتلف منها ، كما تكفل لهم حرية كسب العيش ، وتنظيم جماعاتهم داخلياً بجانب حرية العقيدة والدفاع عنهم ، طالما أنهم يعيشون في داخل المجتمع الإسلامي .

وبالطبع فإن الجزية قد انتهت في المجتمع العربي المدني المعاصر ، حيث حلت محلها ضرائب يدفعها جميع المواطنين من جميع الأديان .

هذه هي الحقائق التي تكشف لنا جوهر الموقف الإسلامي من

أهـل الأديان السـماوية الأخـرى ، ومن المسيحيين على وجـه الخصوص ، ولذلك لم يكن هناك على مر التاريخ عقبة أساسية في التفاهم والتعايش بين المسلمين والمسيحيين في المجتمع العربي ، لأن الأصـول الـدينية في الإسـلام تمنـع الصراع بين المسلمـين والمسيحيين ، من النـاحية الدينية ، وإذا كان هناك لحظات من الصراع ظهـرت في بعض الفـترات ، فقـد كان سببها دائماً غير ديني ، وعنـدمـا نطوي الصفحات ، ونصل إلى العصر الحديث الـذي يبـدأ بالقـرن المـاضي ، ندرك تمام الإدراك أن المبـادىء الأساسية التي قام عليها الإسلام قد ساعدت أعظم المساعدة على بناء المفهوم الجديد للدولة والوطن ، فلم يكن عند المسلمين ماعند اليهود من « عقد » مثل عقدة « الشعب المختار » التي تجعل من اليهود في نظر أنفسهم شعباً فوق كافة الشعوب ، وتفرض عليهم العزلة والتعالى وعدم الاندماج بغيرهم من الشعوب ، ثم تدفعهم في آخـر الأمـر إلى إقـامـة دولة « اسرائيل » على أساس أسطورة « أرض الميعاد » التي تجعلهم وحدهم يدّعون أنهم أصحاب الحق في فلسطين ، بعد أن تركوها منذ آلاف السنين ، وانتشروا في شتى أنحاء الأرض .

والتطور السياسي الذي حمله « القرن التاسع عشر » إلى البلاد العربية هو ميلاد القوميات بمعناها الحديث . فلم تعد « الرابطة الدينية » وحدها كافية لقيام الأوطان ، حيث أصبح من الضروري الاشتراك في اللغة والرقعة الجغرافية والمصلحة المشتركة ، والمصير

الواحد . أما الرابطة الدينية فيمكن أن تتوفر دون أن تتوفر وحدة الوطن ، كما هو حادث في أوروبا المسيحية ذات الأوطان المتعددة ، وقد بدأت فكرة القومية تتردد في البلاد العربية منذ أن عاد رفاعة الطهطاوي إلى مصر من بعثته إلى فرنسا في أوائل القرن الماضي ، وقد أتم هذه البعثة ، وتشرب الروح القومية الناشئة في فرنسا وأوروبا كلها في هذا العصر ، وامتلأ بالحنين إلى بلده « مصر » حيث قال في قصيدة له :

لئن طلقت باريساً ثلاثاً
فما هذا لغير وصال مصر

وعندما عاد رفاعة الطهطاوي إلى مصر كان « محمد علي » يعيش تجربة حضارية كبرى نشأت عن إحساسه بالتناقض بين « الخلافة العثمانية » والبلاد الناطقة باللغة العربية وعلى رأسها مصر ، وكان محمد على يندفع على يد ابنه ابراهيم في طريق تحقيق الدولة العربية الواحدة ، ويحدثنا عبد الرحمن الرافعي في كتابه « عصر محمد علي » عن الفكرة العربية عند « ابراهيم » فيقول نقلاً عن أحد « البارونات » الأوروبين الذين التقوا بإبراهيم وعرفوا أفكاره وآراءه بعد أن تحدثوا معه طويلاً : إن ابراهيم يجاهر علناً بأنه ينوي إحياء القومية العربية ، وإعطاء العرب حقوقهم ، واسناد المناصب إليهم سواء في الإدارة أو في الجيش ، وأن يجعل منهم شعباً مستقلاً ويشركهم في إدارة الشئون المالية ، ويعودهم سلطة الحكم كما يتحملون تكاليفه ، وتتجلى فكرته هذه في منشوراته ومخاطباته

لجنوده في الحرب الأخيرة بسورية ، فإنه لايفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها التالد ، ويتصل بهذا المعنى مجاهرته بأن كل البلدان العربية يجب أن تنضم تحت لواء أبيه ، وهو في صلاته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية ، ويعد نفسه عربياً ، ولذلك لاينفك يطعن في الأتراك ، وقد لاحظ عليه ذلك أحد جنوده ، وخاطبه بتلك الحرية التي كان يشجع رجاله عليها ، وسأله كيف يطعن الأتراك وهو منهم ، فأجابه « ابراهيم باشا » على الفور : « أنا لست تركياً ، فإني جئت مصر صبياً ، ومنذ ذلك الحين قد مصرتني شمسها ، وغيرت من دمي وجعلته دماً عربياً » .

هذا هو الموقف في مصر والبلاد العربية في عصر محمد علي ، فمن الجانب العملي اتجه محمد علي إلى الإنفصال عن الخلافة العثمانية على أساس إقامة وطن قومي عربي يضم العرب الذين يتكلمون بلسان واحد ، وتتصل بلادهم ببعضها البعض اتصالاً جغرافياً كاملاً ، وتتصل مصالحهم الاقتصادية والسياسية ببعضها البعض أشد الاتصال ، ومن الناحية النظرية كان رفاعة الطهطاوي ـ وهو يمثل روح عصره خير تمثيل ـ ينادي بأن الذي يجمع الأفراد هو الوطن الواحد ذو اللغة الواحدة ، وكان بذلك يهدم نظرية الخلافة العثمانية التي تقيم الدولة على أساس « وحدة الدين » بدلاً من وحدة اللغة ، ووحدة الصلة الجغرافية ، والمصلحة المشتركة بين المواطنين .

منذ ذلك التاريخ ، في أوائل القرن الماضي ، ولدت فكرة

القومية في بلادنا ، وأخذت تنمو وتمتد حتى وقتنا الحاضر ، وقد مرت هذه الفكرة ، بعصنور من المد وعصور من الجزر ، ولكنها لم تتوقف عن الحياة والحركة منذ ذلك الحين إلى اليوم ، رغم فشل تجربة محمد على فى توحيد البلاد العربية لأسباب عديدة ، أهمها التدخل الأجنبي الأوروبي ضده . وفي خلال هذه الفترة التي تزيد على قرن من الزمان ، واجهت فكرة القومية العربية أعداء مختلفين ، وكان على رأس الأعداء : الاستعمار التركي للبلاد العربية ، ثم الاستعمار الغربي الذي ورث الأتراك في السيطرة على البلاد العربية إبتداءً من سنة ١٨٣٠ عندما سيطرت فرنسا على الجزائر ، و ١٨٨٢ عندما سيطرت انكلترا على مصر ، ثم أحكم الاستعمار الغربي قبضته على معظم البلاد العربية بعد ذلك عندما انتهت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ وانهارت الخلافة العثمانية ، وتحولت البلاد العربية المختلفة إلى مستعمرات غربية .

وفي هذا الكفاح الطويل الذي خاضته فكرة القومية العربية ضد أعدائها لعب المسيحيون العرب دوراً بارزاً ورئيسياً ، فقد كان الكثيرون من دعاة القومية العربية الأوائل من المسيحيين ، وكان ذلك امراً منطقياً إلى حد بعيد ؛ لأن المسيحيين كانوا يشعرون أن الارتباط العربي بينهم وبين العرب المسلمين ، سوف ينقذهم أولاً وينقذ الجميع بعد ذلك من الاستعمار التركي والاستعمار الغربي معاً ، ولأن المسيحيين العرب كانوا يدركون ذلك الموقف « الجوهري » ، الذي يكمن في الإسلام نفسه والذي يحض على

التعايش الكامل بين المسلمين والمسيحيين ، ولأن المسيحيين العرب كانوا يدركون أن هناك رابطة حقيقية وأساسية بينهم وبين العرب المسلمين ، وهي رابطة لا توجد بينهم وبين الأتراك المسلمين ، ولابينهم وبين المسيحيين الأوروبيين ، ألا وهي وحدة اللغة والثقافة والحضارة الممتدة لأكثر من ألف عام ، بالإضافة إلى الرابطة الجغرافية التي تربط بين أنحاء الوطن العربي كله من الخليج إلى المحيط ، كما نقول الآن .

وقد سجل المؤرخون أن المسيحيين العرب في الشام كانوا يؤيدون محمد علي في اتجاهاته العربية تأييداً كبيراً واسعاً ، وذلك لأنهم كانوا « يغبطون المسيحيين المصريين على ماكانوا يلقونه في ظل محمد علي من معاملة عادلة » .

وقد كان هذا الموقف سبباً في تأييد المسيحيين في الشام لمحمد علي وابنه ابراهيم ، حيث لم يكن هؤلاء المسيحيون « أقل من المسلمين ترحيباً بابراهيم وترقباً له » .

على أن هناك ملاحظة هامة يجمع عليها المؤرخون والباحثون في مجال القومية العربية بالتحديد ، وهي أن الفكرة القومية العربية قد بدأت في الشام على يد رواد فى مقدمتهم عدد من المسيحيين العرب وعلى رأسهم : ناصيف اليازجي « ١٨٠٠ ـ ١٨٧٩ » وابنه ابراهيم اليازجي « ١٨٤٧ ـ ١٩٠٦ » .

أما ناصيف اليازجي فقد صرف عمره كله في دراسة اللغة

العـربية والأدب العـربي القديم ، وهذه صورة له ولابنه ابراهيم يرسمها لنا « جورج أنطونيوس » في كتابه « يقظة العرب » الذي كتبه مؤلفه بالانكليزية ، وترجمه الدكتوران ناصر الأسد وإحسان عباس . يقول « أنطونيوس » :

« كانت قدرة ناصيف اليازجي على العمـل كبـيرة ، وذاكـرته قوية ، فحينـما كان يعثـر على نص يعتقـد أنـه جدير بالـدراسة العميقـة ، كان يحفـظه عن ظهر قلب ، أو ينسخه يصبر ودأب بخطه المزخرف ، وقد مكنه ارتياده المكتبات من الوصول إلى أعماق الأدب العربي القديم الذي كان آنئذٍ مجهولاً ، وكشف له ذلك عن الدمار الذي حاق بهذا التراث على مر العصور . ومنذ ذلك الحين أصبح شغله الشاغل أن يحيي هذا التراث ويستعيد الماضي ، وقد أيقظ جمال هذا الأدب الدفين الوجدان العربي في نفسه ، فهام به وكأنه مسحور، وأصبح الرسول الداعي إلى بعثه وإحيائه » .

« وقد أصدر عدداً كبيراً من الكتب في علوم اللغة العربية مثل النحو والمنطق والبلاغة والعروض ، وقد اتسع استعمال هذه الكتب وانتشرت بين المدرسين والطلاب ، وظلت زمناً طويلاً بعد وفاته توجه تدريس « علوم العربية » وكان ناصيف اليازجي متأنياً بفطرته حذراً مقـلاً في كلامه . ولكنه حين يتحدث عن اللغة العربية ـ وهي غرامه الوحيد في حياته الفكرية ـ كان لسانه ينطلق من عقاله فيطيل الحديث ، ولم يكل قط عن دعوته إلى إحياء الأدب القديم ، حتى نجح في إقناع عدد كبير من طلاب العلم بأن ذلك هو السبيل

الـوحيد للنجاة ، وكانت طرافة دعوته وجدتها تثيران الانتباه لأنه كان يتجـه بها إلى العـرب على اختـلاف عقيدتهم : النصـارى والمسلمـين جميعـاً ، وكان يهيب بهم - في منتصف القرن الماضى حيث كان التعصب الـديني لايزال عنيفـاً - أن يذكـروا تراثهم المشـترك ، وأن يشيدوا على أسســه مستقبـلاً يجمعهم إخـوانـاً متآلفين ، ونشأ أطفاله الاثنا عشر ، بنين وبنات ، على هذه الآراء وأعداهم بحماسته ، حتى بلغ من تأثر أحد ابنائه وهو « إبراهيم اليازجي » بتعاليم أبيه أن أصبح فيها بعد أول من نادى بالتحرر القومي للعرب » .

وكان « إبراهيم اليازجي » ابن ناصيف ، أحد أعضاء الجمعية العلمية السورية ، التي أنشئت سنة ١٨٥٧ ، وفي اجتماع سري عقده بعض أعضاء هذه الجمعية ألقى ابراهيم اليازجي قصيدته المشهورة والتي كانت أول صوت ظهر لحركة العرب القومية وكان مطلع القصيدة :

تنـبـهـوا واسـتـفـيقـوا أيهـا الـعـرب
فقـد طمـى الخـطب حتـى غاصـت الـركـب

ويحـدثنـا « أنـطونيوس » في كتـابه « يقظة العرب » أيضاً عن قصيدة ابراهيم اليازجي هذه فيقول :

« لقد اتخذت هذه القصيدة صورة النشيد الوطني ، والقصيدة في جوهـرها ، تحريض للعرب على الثورة : تغنت بأمجاد العرب

ويمفاخر أدبهم ، وبالمستقبل الذي يستطيعون أن يصنعوه لأنفسهم ، باستلهام ماضيهم ، ونددت بشرور التفرقة الطائفية ، وكانت في جملتها مثيرة للمشاعر ، مفعمة بالألفاظ التي تلهب الحماسة . وقد ألقيت بصوت خافت في ثمانية من أعضاء الجمعية اجتمعوا في بيت أحدهم ، وكان كل عضو منهم يعرف أنهم متفقون معه في التفكير ، وذاعت القصيدة ذيوعاً واسعاً ، وكان الناس لا يأمنون على أنفسهم أن يتهموا من جانب الحاكم التركي « بالخيانة » ، ولذلك لم يدونوها إلا في ذاكرتهم ، وبلغت موهبة العرب في حفظ الشعر في الذاكرة ، ومقدرتهم على التآمر الخفي ، مبلغاً أتاح لهذه القصيدة أن تنتشر بالرواية الشفهية في بيروت كلها ، ثم في جميع انحاء البلاد ، من غير أية إشارة تنبىء عن مصدرها ، وكان لها أثر بالغ فى نفوس الطلاب فطبعت نفوسهم وهم فى سن يسهل فيها التأثر بطابع العزة القومية ، وهكذا استطاعت هذه القصيدة أن توقظ العاطفة العميقة في الشعب الذي كانت تخاطبه ، فكانت أول نشيد لحركة التحرر السياسي ، وكانت الثمرة المباشرة لأول تكتل « عربي » ، اتحدت فيه جميع العقائد لإحياء الثقافة العربية القديمة » [1] .

هذا نموذج من المسيحيين الذين ساهموا في إشعال نيران القومية العربية في القرن الماضي ، أما في عصرنا الراهن فإننا نجد الكثيرين

---

١ ـ جورج انطونيوس ـ يقظة العرب ـ ص ١٢٠ و ١٢١ .

من المفكـرين والأدباء والزعماء المسيحيين العرب ينادون بالقومية العـربية عن إيمان ووعي ، وقـد ذكـرت في فصل سابق نموذجاً للدعوة العربية على لسان الزعيم القبطي المصري الكبير مكرم عبيد الذي كان يقول « نحن المصريين عرب ، نحن عرب ، ويجب أن نذكـر في هذا العصر أننـا دائـماً عرب » وكان يرى أن « الوحدة العربية حقيقة قائمة ، ولكنها بحاجة إلى تنظيم » .

ومن المفكرين المسيحيين المصريين الذين تظهر في كتاباتهم هذه الـدعـوة للقـومية العـربية بوضـوح الدكتور نظمي لوقا والكاتب المسرحى الفـريد فرج والكاتب الصحفي الراحل سامي داود .

وسوف نجد نماذج كثيرة جداً لعدد كبير من المفكرين والأدباء والسياسيين بل والمـواطنـين العرب المسيحيين يؤمنون بقوة وعمق وأصالة بالعروبة والقومية العربية ، وسأكتفي في ختام هذا الفصل بالإشارة إلى نموذجين . أما الأول فنجده في قصيدة للشاعر اللبناني بشارة الخوري ، الذي كان يسمي نفسه باسم « الأخطل الصغير » تشبهاً بالشاعر العربي المسيحي الكبير « الأخطل التغلبي » الذي عاض بين سنتي « ٦٤٠ و ٧٠٨ » ميلادية ، ففي قصيدة لبشارة الخوري يرثي فيها زعيم مصر « سعد زغلول » يقول الشاعر اللبناني :

لم لا تقـولـون إن الـعـرب قاطـبـة
تيتـمـوا ، كان زغـلول أبـاً لهمُ

. . . .

من مبلغ مصر عنا ما نكابده
إن العروبة فيها بيننا ذمم
ركنان للضاد ، لم تفصم عرى لهما
هم نحن إن رزئت يوماً ونحن هم

وفي هذه الأبيات ، من شاعر عربي مسيحي ، إيمان عميق بالعروبة ، وإيمان على وجه الخصوص بعروبة مصر ولبنان ، حيث يؤكد وحدة اللغة والثقافة بينهما ، ويقول عن البلدين إنهما « ركنان للضاد . . . الخ » .

والنموذج الأخير الذي أقدمه هنا يتمثل في أبيات للشاعر السوري المسيحي « وصفي قرنفلي » في قصيدة له عن محمد الرسول العربي ، يقول في مقدمتها مايلي :

« عقيدتي الشخصية أن محمداً ﷺ رسول كبقية الرسل ، وكما جاز للمسيحيين أن يجمعوا للمسيح صفتي الألوهية والإنسانية الممتازتين ، فقد تجوز لي أن أرى في سيد قريش نبياً دينياً ، ومنقذاً قومياً في آن واحد ، فأنا احترمه « ص » كنبي جاءنا بالهدى والرحمة ، وانضوي إلى لوائه كمنقذ لهذا الشرق من إسار الفرس والرومان ، وأنا أرى فى الدين الاسلامى قوة للشرق فى في جهاده القومي يجب استغلالها ، وإذا لم يكن للقرآن من يد إلا صيانة لغتنا ـ واللغة أجل مظاهر القومية ـ لكفاه ذلك فضيلة تحمد ويداً تشكر ، فاعترافاً بفضل محمد والقرآن على العرب كتبت ماكتبت وأكتب . . » ثم يقول الشاعر في قصيدته عن محمد « ص » :

أو عار على فتى يعربي
أن تغنى بالسيد العدناني
أو ليس الرسول منقذ هذا
الشرق من ظلمة الهوى والهوان
صاح بالشرق واستثار بنيه
فتنادوا بالفرس والرومان
ومشوا للحياة تحت رايته السمحاء
صفاً موطد الأركان
منقذ الشرق! أنت لم تنقذ المسلم
دون المواطن النصراني
فجزاء الإحسان أن ينهض الشرق
جميعاً بواجب المهرجان

هذه صورة عامة موجزة لدور المسيحيين العرب في الدعوة إلى العروبة والقومية العربية ، وفي هذه الصورة العامة ، ماأجده رداً كافياً على السؤال المطروح الآن حول « عروبة مصر » وحول « القومية العربية » بشكل عام . . هذا السؤال هو : أين مكان المسيحيين في الدعوة إلى العروبة والقومية العربية ؟ .

والإجابة ، كما يتضح من واقع التاريخ القديم والمعاصر ، هي أن المسيحيين العرب كانوا في مقدمة الدعاة إلى العروبة والقومية العربية . وأن الدعوة العربية هي الصيغة الصحيحة الملائمة للحياة في هذه المنطقة من الدنيا والتى نسميها بالوطن العربي الممتد

من الخليج إلى المحيط ، وهـو الوطن الذي لايعترف به الدكتور لويس عوض ، ويرى أنه ـ رغم كل الحقائق ـ وهم وأسطورة وشيء غير موجود .

مـــن البطريـرك بنيـــامـــين
إلى البابا شنودة
حوار مع مثقف مسيحى

بعض المثقفـين العـرب يحملون في عقـولهم ونفـوسهم أفكاراً ومشاعر لايستطيعون المجاهرة بها ، ولا إعلانها على الناس ، وقد يجد هؤلاء المثقفون مبرراً لاخفاء آرائهم في القول بأن الرأي العام العربي لايتحمل حرية الفكر ، ويسارع إلى اتهام أصحاب الآراء الحـرة بالتهم العنيفـة مثـل « الخيانـة الوطنية » أو « الخروج على الدين » ، وهي أنواع من الاتهامات لايستطيع المفكرون احتمالها في كل الأوقات والظروف ، ذلك لأنها تؤثر على حياتهم وتؤدي بهم إلى أن يصبحوا « منبوذين » ، يعيشون في عزلة عن الناس وخوف عظيم . وربما كان هذا التبرير مقبولاً لو كانت الآراء التي يخفيها هذا النوع من المثقفين ولايجاهر بها ، هي آراء صحيحة مدروسة تعتمـد على أدلة قاطعة ، وبراهين حاسمة ، أما إذا كانت هذه الآراء مبنية على الخـطأ في الاستنتـاج ، والخـطأ في المعلومات ، فذلك هو الخطر الحقيقي ، لأن أصحاب هذه الآراء يكونون في

الواقع أشبه « بالمريض » الذي يتستر على مرضه ويخفيه ، ويدعي أنــه إنســان صحيح لاعلة فيه ، فإذا انفــرد بنفســه أحس أن « المرض » يؤلمه أشد الألم ، وأنه عاجز عن العلاج ، لأنه عاجز عن مصارحة نفسه أو مصارحة الآخرين ، بحقيقة مرضه ، أو حقيقة مايعانيه .

إن ضعف الـرأي العـام الفكري في الوطن العربي وميله إلى التعصب وضيق الأفق والتسرع فى الأحكـام ، ظاهـرة صحيحة لامجــال لإنكــارهــا ، وذلـك بسبب انتشـار الأمية ، وبسبب الصعوبات المختلفة التي يواجهها الإنسان العربي في حياته ، ولكن ضعف الرأي العام العربي لايبرر أبداً للمفكرين أن يخفوا آراءهم عن النــاس ، وأن يتــوقفــوا عن فحص هذه الآراء ودراستهـا وتمحيصهـا بالعلم والمنـاقشات السليمة المختلفة حتى يصلوا إلى الحقيقة ، لأن البديل عن ذلك هو أن يحتفظ هؤلاء المثقفون بآراء خاطئة تضر أصحابها قبل أن تضر الآخرين .

ومن هذا النوع من الأفكار التي يحملها بعض المثقفين ويخفونها في عقولهم ولايكشفونها في النور ماجاء في رسالة تلقيتها من أحد هؤلاء المثقفـين عن قضية « عروبة مصر » ، وقد أخفى صاحب هذه الـرسالة اسمه ، ولم يصرح به ، فإخفاء الاسم يعطيه ـ كما يتصـور ـ حرية أكبر في التعبير عن آرائه التي لايستطيع المجاهرة بها ، ولاتقديمها إلى الناس ، خوفاً وإشفاقاً مما يمكن أن يترتب على هذه الآراء من ردود فعل هنا أو هناك .

وسأنشر هنا الجزء المهم من هذه الرسالة التي وصلتني ، وأناقش ماجاء فيه من آراء ، وذلك لأنني أرى في هذه الرسالة تمثيلاً لما يدور في ذهن طائفة من المثقفين العرب الذين أشرت إليهم ، وهم هؤلاء الذين يخفون آراءهم الحقيقية في أعماق عقولهم ، ويواجهون الناس بأقنعة وآراء لاتمثل حقيقة معتقداتهم إشفاقاً مما يمكن أن تحدثه آراؤهم الحقيقية من ردود أفعال عنيفة في الرأي العام العربي كما يتصورون .

يقول الكاتب الذي لم يذكر اسمه في رسالته معلقا على مناقشتي للدكتور لويس عوض :

« قرأت ماكتبتموه في مجلة المصور عن القومية العربية والعبقرية المصرية ، وتألمت للروح التي ظهرت من بين السطور ، والتي تظهر دائماً كلما تصدى كاتب مسلم لآخر يخالفه في الرأي ، مما يشيع روح التعصب ، ويحطم السلام الاجتماعي ، وأود أن أهمس في أذنك ببعض الحقائق :

« **أولاً** : إن ما ذهب إليه الدكتور لويس عوض لم يخرج عن دائرة الصواب ، فدخول العرب إلى مصر هو فتح أو غزو ثم هو استيطان . وهذا مانسميه حالياً بالاستعمار الاستيطاني ، فالفتح العربي لمصر هو الرائد في هذا المجال بين جميع حركات الاستعمار الاستيطاني في العالم . ولعل السبب في هذا أن بلاد العرب في ذلك الوقت كانت صحراء خربة ، وكانت مصر جنة الله في الأ÷ض ،

فاستوطنوها ودفعوا أهلها إلى اعتناق عقيدة مخالفة لعقيدتهم بوسائل عديدة منها الجزية » .

« ثانياً : قلت إن العرب عدلوا بين سكان البلاد من الأقباط ، وهذا غير صحيح إذ أنهم ساموهم العذاب ، وفرضوا عليهم الجزية ، وكانت فادحة ؛ ومن لم يؤمن بالدين الجديد ، أو يدفع الجزية ، لم يكن أمامه إلا الاستشهاد ، هذا رغم أن الإسلام يعترف أن النصارى أهل كتاب ويؤمنون بالله واليوم الآخر » .

هذا هو الجزء الذي يمكننا مناقشته من رسالة المثقف المصري الذي آثر إخفاء اسمه ، نتيجة لمخاوفه من إعلان مثل هذه الآراء والتعبير عنها ، أما بقية الرسالة ففيها آراء شديدة السذاجة عن اللغة العربية والقرآن ، ولاجدوى من نشر هذا الجزء من الرسالة ، لأنه واضح الخطأ عند المسلمين والمسيحيين على السواء ، حتى ولو كانوا على علم قليل .

ونعود إلى الجزء الذي نود مناقشته من هذه الرسالة ، وهو يتركز حول الفتح العربي لمصر ، فصاحب الرسالة يرى أن هذا الفتح كان « استعماراً استيطانياً » ، أي أنه كان من نوع الاستعمار الصهيوني لفلسطين ، أما النقطة الثانية فهي أن العرب قد عاملوا الأقباط معاملة سيئة .

هذا هو مايقوله صاحب الرسالة أو يتصوره ، فما هو الصواب والخطأ في مثل هذا القول ؟

إن حقائق التاريخ الثابتة تقول إن مصر قبل الفتح العربي الذي تم سنة ٦٤٠ ميلادية ، كانت خاضعة لسلطان « الرومان » ، وكانت الدولة الرومانية تقوم على حكم البلاد ولم يكن أهل مصر هم الذين يحكمونها ، أى أن مصر لم تكن دولة مستقلة ، وتؤكد حقائق التاريخ الثابتة من ناحية أخرى ، أن مصر لم تكن راضية بحكم الرومان على الإطلاق ، بل كانت في حالة من السخط وعدم الرضا بهذا الحكم الاستبدادي الظالم ، فالرومان كانوا ينظرون إلى مصر على أنها مزرعة للقمح ، تجمعه السلطة الرومانية ، وترسله في سفنها من الاسكندرية إلى القسطنطينية ، وكان هذا القمح يزرع في أرض مصر وبجهد الفلاح المصري ، الذي كان يعامل في عهد الرومان معاملة الرقيق ، فلا يستطيع أن يترك قريته إلى قرية أخرى ، أو يترك الحقل الذي يعمل فيه إلى حقل آخر ، وإذا فعل شيئاً من هذا اعتبرته السلطات الرومانية هارباً يستحق أقصى العقوبات وهي الإعدام . وكانت الضرائب المفروضة على المصريين شديدة القسوة ، وكان الحكام الرومان يبذلون أقصى جهودهم لجمع هذه الضرائب وتقديمها إلى « هرقل » حاكم « القسطنطينية » ليستخدمها في تدعيم قوته وجيشه في مواجهة أعدائه في الداخل والخارج على السواء ، إذ أن « هرقل » كان قد استولى على الحكم بمؤامرة قتل فيها الامبراطور السابق « فوكاس » وكان لايأمن من أنصار الامبراطور السابق داخل البلاد ، أما خارج البلاد فقد كان « هرقل » في حرب مع الفرس ، وكان في حرب مع القوة الجديدة الناهضة ، وهي قوة

العرب ، ولم تكن مصر تعني شيئاً بالنسبة للامبراطورية الرومانية وحـاكمهـا « هرقـل » ، سوى أنها مصدر للقوة المادية التي تعينه اقتصادياً ، وتساعده في حروبه ، ودعم سلطانه على العرش .

هذه الحقـائق لايختلف فيهـا اثنان من المؤرخين ، فقد كانت مصر تئن تحت حكم الرومان أنيناً مسموعاً في العالم كله ، وعندما جاء العرب إلى مصر بقيادة « عمرو بن العاص » في عدد لايزيد على أربعة آلاف من المقاتلين ، وقد دخل الجيش العربى معارك مختلفة ضد جيش الرومان ولم يدخل حرباً ضد المصريين أنفسهم ، فالحكم الـرومـاني لم يكن يثق بالمصريين ، ولم يكن يأمن لهم ، ولـذلـك لم يكن للمصريين علاقـة بالجيش الـرومـانى ، وكـان المصريون لايحملون سلاحاً إلا في حدود حماية الأمن الداخلي ضد اللصوص وقطاع الطرق ، أي أنهم كانوا يقومون بدور الشرطة على أكثر تقدير وفي أضيق نطاق ، أما الجيش فلم يكن لهم علاقة به ، ولامكان لهم فيه .

على أن اضطهاد الرومان للمصريين لم يتوقف عند الحدود المادية والاقتصـادية ، فقـد اضـطهـد الـرومـان المصريين في عقيدتهم المسيحية أعنف الاضطهاد وأقساه ، وقد بدأ اضطهاد المسيحيين في عقيدتهم . المسيحية قبل ظهور الاسلام ، وقبل الفتح العربي بما يزيد على ثلاثـة قرون ، ويكفي أن نشـير إلى صفحة من تاريخ الاضطهاد الروماني للمصريين في عقيدتهم وهي الصفحة المعروفة باسم « عصر الشهـداء » ، فقـد شن امـبراطـور الـرومـان

« دقلديانــوس » الـذي تولى الحكم سنـة ٢٨٤ ميلادية ، حملة اضطهاد واسعة النطاق على المسيحيين المصريين ، وهذا تلخيص عام لعصر « دقلديانـوس » كما سجله اثنـان من كبـار المؤرخـين العـرب ، أحـدهما معاصر هو « عبد الرحمن الرافعي » ، والثاني قديم وهو المقريزي .

أمـا الـرافعي فيقول في كتابه « تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة من فجر التاريخ حتى الفتح العربي » ص ٢٤٤ :

شن دقلديانوس على المسيحيين « الأقباط » اضطهاداً دام نحو عشرين عامـاً قاست فيهـا مصر الشـدائد والأهوال ، واستشهد خلالها الألوف من المصريين المسيحيين « الأقباط » ، وقد اشتهر عهد « دقلديانوس » باضطهاد المسيحيين الأقباط على نحو فاق كل ماأصابهم من قبل ، وسمي عهده باسم « عصر الشهداء » لكثرة من استشهـد فيه من المصريين المعتنقين للمسيحية ، وقد جعل الأقباط بداية التقويم القبطي سنة ٢٨٤ م ، وهي السنة التي بدأ فيهـا حكـم « دقـلديانــوس » ، وسـمـي عصره بحق « عصر الشهـداء » ، وتخليداً لذكـرى أولئـك الشهـداء جعلوا التقـويم القبطي يبدأ بالسنة التي بدأ فيها هذا الاضطهاد الشديد ، وقد كان تمسك المصريين المسيحيين الأقباط بعقيدتهم من ضروب المقاومة الوطنية ضد الاحتلال الروماني » .

هذا ماقاله المؤرخ المعاصر عبد الرحمن الرافعي ، وهو مطابق لما جاء في كتب التـاريخ القبـطي ، ومـاجـاء في أبحـاث المؤرخين

الأجانب على السواء . أما المؤرخ القديم « المقريزي » فقد كتب في كتابه المشهور « المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار » يقول عن اضطهاد « دقلديانوس » للمصريين مايلي : « إنه أوقع بالنصارى فاستباح دماءهم وغلق كنائسهم ومنع من دين النصارى ، وحمل الناس على عبادة الأصنام ، وبالغ في الإسراف في قتل النصارى ، وكان لايفتر يوماً واحداً يحرق كنائسهم ، ويعذب رجالهم ، ويطلب من استتر منهم أو هرب ، يريد بذلك قطع أثر النصارى ، وإبطال دين النصرانية من الأرض ، فلهذا اتخذوا ابتداء دقلديانوس تاريخاً » .

ومايقوله الرافعي والمقريزي ثابت عند المؤرخين الشرقيين والغربيين ، وعند المؤرخين المسلمين والمسيحيين على السواء .

والذي حدث بعد ذلك أن الرومان اعتنقوا المسيحية على يد الامبراطور « قسطنطين » سنة ٣٢٤ ميلادية . فهل زال اضطهاد المسيحيين المصريين بعد ذلك ؟

إن حقائق التاريخ تؤكد أن اضطهاد الرومان للمصريين في عقيدتهم ظل قائماً كما كان ، ذلك لأن الرومان اعتنقوا مذهباً في المسيحية هو الذي سمي آنذاك بالمذهب الملكي ، والذي يؤمن بتعدد طبيعة المسيح ، أما المصريون فاعتنقوا مذهباً آخر هو المذهب الذي سمي آنذاك بالمذهب اليعقوبي ، وهو المذهب الذي يؤمن بوحدة طبيعة المسيح ، ولامجال هناك للخوض بالتفصيل في

الفرق بين المذهبين ، لأن البحث ليس بحثاً دينياً ، إنما هو بحث تاريخي وسياسي . المهم أنه كان من نتيجة اعتناق المصريين لمذهب دينى مخالف لمذهب الرومان ، أن الاضطهاد الروماني للمصريين استمر على أشد مايكون من القسوة والعنف ، وهو ماأدى « بالأب بنيامين » الذي كان بطريركاً للمسيحيين عند فتح العرب لمصر إلى الهروب والاختفاء داخل البلاد لمدة عشر سنوات قبل الفتح العربي ، وكان ذلك نتيجة الاضطهاد الواقع عليه وعلى المسيحيين المصريين ، بسبب مذهبهم الديني المخالف لمذهب الرومان ، ولم يظهر « بنيامين » بعد اختفائه ، ويتولى سلطاته الكاملة من جديد إلا بعد دخول العرب إلى مصر ، فقد استدعاه عمرو بن العاص قائد الفتح الإسلامي ، وأمنه على نفسه ، وعلى دينه ، هو وأهل مصر جميعاً ، كما أشرنا من قبل فى أول الفصل السابق من هذا الكتاب .

وأمامنا مرجع عظيم الأهمية عن « الفتح العربي لمصر » وهو كتاب من تأليف العالم الانكليزي الكبير الدكتور « الفرد بتلر » والذي ترجمه إلى العربية ترجمة دقيقة كاملة الأديب الكبير المرحوم محمد فريد أبو حديد . فماذا نجد في هذا الكتاب الذي كتبه مؤلف أوروبي مسيحي للقارىء الأوروبي المسيحي ، بحيث لايمكن اتهام هذ ا الكاتب بأنه منحاز للعرب المسلمين ضد الرومان المسيحيين ؟ .

هذه بعض فقرات مما كتبه « بتلر » من ترجمة محمد فريد أبو حديد :

١ ـ إن « القبط » نالوا في أول الفتح العربي كل مايتصوره العقل ويبيحه من الحرية .

٢ ـ كان العرب على مايلوح لنا أخف وطأة من الرومان في جبـاية الأمـوال ، إذ كان مقدار الجزية والضرائب الذى اتفقوا عليه في عهد الصلح أخف حملاً على الناس وأقل إحراجاً لهم .

٣ ـ ينقـل « بتلر » على لسان الأب بنيامين قوله بعد الفتـح الإسلامي ولقائه بعمرو بن العاص : « كنت في بلدي وهو الاسكندرية ، فوجدت بها أمناً من الخوف ، واطمئناناً بعد البلاء ، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبـأسهم » . والكفرة هنا هم الرومان المسيحيون الذين اضطهدوا المسيحيين المصريين .

٤ ـ يقول « بتلر » عن موقف الأقباط بعد فتح العرب لمصر : « إذن فما كان أعظم ابتهاج القبط بخلاصهم مما كانـوا فيه ، فقـد خرجـوا من عهد ظلم وعسف تطاول بهم ، وهوت بهم إليه حماقة البيزنطيين ، وآل أمرهم بعد خروجهم منه إلى عهد من السلام والطمأنينة : « هو عهد العرب المسلمين » ، وكانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكام الدنيا واضطهاد أهل الدين ، فأصبحوا وقد فك من قيدهم في أمور الدنيا ، وأرخي من عنانهم ، وأما دينهم فقد صاروا فيه إلى تنفس حر وأمن طليق . وقد يقال إن

حكامهم الجدد ـ أي العرب ـ قد أدخلوا إلى الأرض ديناً غريبا غير دين المسيح ، وهذا حق غير أنهم لم يروا فى ذلك إلا عدلا من الله ، إذا أجمع الناس على قول واحد ، فقالوا : « ماخرج الروم من الأرض وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر ، وماأنزله بالقبط وملتهم ، فقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لبلاد مصر » .

هذه هي شهادة « بتلر » الكاتب الأوروبي المسيحي ، بشأن الفتح العربي لمصر ، وهي شهادة واضحة محددة ، لامجال أمامها للشك في أن المصريين قد وجدوا ظروفاً مادية ودينية أفضل بكثير في ظل العرب ، مما كانوا يعانونه من استغلال مادي واضطهاد ديني في ظل الرومان . سواء في « عصر الشهداء » أو في عصر « هرقل » ، والبطريرك بنيامين الذي شهد الفتح العربي لمصر ظل يقاوم اضطهاد الرومان لمصر عشر سنوات متصلة ، ولم يستسلم لاضطهاد الرومان على الإطلاق ، فما الذي كان يمنع هذا البطريرك المناضل من مواجهة الفتح العربي بنفس الروح الباسلة من النضال ، لو أنه وجد من الفاتحين المسلمين نفس الاضطهاد ، أو درجة من الاضطهاد قريبة من اضطهاد الرومان ؟ وما الذي يمنع هذا البطريرك المناضل ، وريث « عصر الشهداء » من مقاومة العرب بعنف وقوة ، لو أنه وجد فيهم مايمس شعبه وعقيدته ؟ !

إن المنطق هنا واضح تماماً . فالمصريون قد وجدوا في ظل العرب مالم يجدوه في ظل الرومان : ولذلك تقبلوا الفتح العربي ، وتصالحوا مع الفاتحين ، وسعدوا بخروج الرومان من البلاد . وكان لهذا كله الأثر الأكبر في امتزاج الفاتحين العرب بأهل البلاد ، مما أدى إلى تعريب مصر بالتدريج ، واتخاذها للغة العربية لغة لها بعد ذلك ، وأدى إلى دخول كثير من المصريين في الإسلام ، مع بقاء من اختار منهم المسيحية حراً في عبادته وديانته دون ضغط أو إكراه ، أما الجزية فكانت بديلاً للدفاع عن البلاد ، والذي كان المسلمون يقومون به وحدهم دون المسيحيين ، فالجزية هي أقرب مايكون إلى ضريبة الأمن والدفاع ، كما أشرنا في الفصل السابق .

وليس معنى هذا أننا لن نجد في تاريخ الحكم العربي لمصر فترات استبد فيها الحكام بالبلاد ، فالاستبداد ظاهرة سياسية وقعت من بعض الحكام العرب على مصر ، وعلى غيرها من البلاد التي دخلت في نطاق الدولة العربية الجديدة ، فقد تعرضت كل هذه البلاد بما فيها الجزيرة العربية نفسها لموجات من الاستبداد في بعض المراحل من عصر الأمويين والعباسيين على السواء ، ويمكن للباحثين دراسة هذه الفترات على أنها من فترات الاستبداد السياسى التى عرفتها كل الشعوب ، لا على أنها استبداد خاص من العرب ضد المصريين ، لأن الحاكم المستبد كان يظلم سكان مصر جميعاً سواء كانوا من أهل البلاد الأصليين ، أو من القبائل العربية التي استوطنت البلاد ، وأقامت فيها .

أما حكاية « الاستعمار الاستيطاني » فهى تحتاج إلى وقفة علمية متأنية . إن الحكم على العصور القديمة بمنطق العصر الحديث غير سليم ، ففي العصر الذي دخل العرب فيه مصر ، بل وبعد ذلك بقرون عديدة ، كانت شعوب العالم كلها تمتزج وتختلط ببعضها البعض عن طريق سلمي تارة ، وعن طريق الحرب والعنف تارة أخرى . فتاريخ الأمة الانكليزية الحديثة مثلاً يتكون من الاختلاط العنيف القاسي بين شعوب متعددة منها البريطانيون الأوائل ، ثم القبائل الجرمانية وأهمها قبائل « الانكليز والسكسون » ثم النورمان ، الذين أغاروا منذ تسعمائة سنة على انكلترا . وكان الاختلاط والتفاعل بين هذه العناصر قاسياً عنيفاً شهد الكثير من الحروب والمذابح والمصادمات المريرة ، حتى انتهى بتكوين الأمة الانكليزية الحديثة . ولذلك لم يكن غريباً في عصر الفتح العربي لمصر ، أن يمتزج شعب مصر الأصلي بشعب آخر هو شعب الجزيرة العربية ، ليخرج من هذا الامتزاج شعب جديد هو شعب مصر العربي الحالي ، فذلك كان هو منطق التاريخ في تلك الفترة ، وكان صورة من التفاعلات الاجتماعية الإنسانية إلى مابعد دخول العرب مصر بقرون عديدة . وليس في امتزاج العرب بالمصريين مايسمح لنا علمياً بتشبيهه بالاستعمار الاستيطاني ، كما رأيناه في أحدث نماذجه مجسداً في اسرائيل . فالاستعمار الاستيطاني يقوم على أساس طرد شعب من أرضه والحلول محله كما فعل اليهود مع شعب فلسطين ، وهذا مالم يقم به العرب ولابما يشبهه على

الإطلاق ، بل لقد عاش العرب مع المصريين فى سلام ، وامتزجوا بهم امتزاجاً طبيعياً عميقاً .

وقد تم امتزاج العرب بالمصريين كما يقول محمد فريد أبو حديد في كتابه « أمتنا العربية » ، وكما تؤكد وقائع التاريخ المختلفة . . تم هذا الامتزاج بصورة « تطور عفوي لاتشوبه مواقف أو مصادمات عنيفة بين العناصر المكونة للأمة الجديدة إذا ألقينا نظرة سريعة على الحوادث الدامية التي تخللت تطور إحدى الأمم الحديثة مثل الأمة الانكليزية » .

ويواصل محمد فريد أبو حديد في كتاب « أمتنا العربية » أيضاً تقديم صورة حية عن الطريقة التي تم بها امتزاج العناصر المختلفة التي منها تكونت الأمة الانكليزية الحديثة ، فيقول « ص ١١٤ » :

« الأمة الانكليزية الحديث تكونت من مجموعة كبيرة من العناصر ، كان أولها البريطانيون الأوائل الذي أخضعوا لحكم الرومان منذ القرن الأول للميلاد . ولما ضعفت الدولة الرومانية حلت في بريطانيا جموع كبيرة من القبائل الجرمانية في القرن الخامس للميلاد ، وكان أهمها قبائل « الانكليز والسكسون » الذين كانوا الطبقة الحاكمة ، وأذلوا البريطانيين الأوائل ، وطردوهم إلى أطراف الجزيرة الشمالية والغربية . واستمر الحكم في أيدي « الانكليز والسكسون » نحو ستة قرون أخرى ، حتى أغار « النورمان » على بريطانيا ، في القرن الحادي عشر الميلاد . وكان

الفتح « النورماني » بدء المرحلة الثالثة في التطور الطويل للأمة الانكليزية الحديثة ، وكان عهد الحكم « النورماني » عهد ذل وبؤس وفقر ، سواء للعنصر « الأنكلو سكسوني » أو للعنصر الأول البريطاني .

وقد سجل التاريخ وصفاً مفصلاً لقسوة ذلك الحكم نقتطف منه بعض عبارات عامة لنبين إلى أي حد بلغ تعسفه بالأهلين جميعاً .

يقول المؤرخ الانكليزي « هلم » : « علاوة على مظاهر القسوة التي وقعت على الانكليز بعد كل ثورة كانوا يقومون بها ضد النورمان ، أضرب مثلين من وقائع التدمير الشامل التي ذاع ذكرها . فقد دمرت ولاية « يوركشير » تدميراً كاملاً ، كما دمر إقليم الغابة الجديدة « نيو فورست » . . . فبقيت هاتان الولايتان تسع سنوات ، وليس فيهما قرية مأهولة ، بل لم يبق فيهما كائن حي » . - وجاء في يوميات « وليام » أحد مؤرخي الانكليز القدامى : « لم تبق قرية مأهولة بين « يورك » و « درهام » إذ أن الحرائق والتقتيل والتدمير حولت ذلك الإقليم إلى خراب ، وحولته إلى برية ماتزال مواتاً الى اليوم ، أي بعد ستين سنة من الفتح النورماني » .

« وقد استولى « وليم الفاتح » النورماني على أملاك أكثر أعيان الانكليز السكسون ، واستولى « النورمان » على كل وظائف الحكم ووظائف الكنيسة ، واضطر كثير من الأعيان الانكليز إلى

الهجرة حتى وصلوا إلى « القسطنطينية » ودخلوا في خدمة حرس الامبراطور الروماني . وكان نير « النورمان » على عامة الأهلين أشد وطأة ، فقد حرم عليهم إيقاد الأنوار في بيوتهم في الليل ، وجعلت عقوبة الإعدام جزاء على المخالفة ، حتى لاتتاح لهم فرصة للاجتماع في الليل والتآمر للثورة ضد مظالم الفاتحين .

وقد اعتبر الفاتحون أهل البلاد جميعاً أشباه عبيد وأقاموا قلاعا عدة في طول البلاد وعرضها لإرهابهم وإخضاعهم ، وكان يحرم عليهم أن يمارسوا الصيد من البراري والغابات كي يحفظوا الحيوان البري كله لامتاع سادتهم الفرسان النورمان بالصيد ، وكان من قواعد الحكم عند « النورمان » أنه إذا وجد قتيل في ناحية من النواحي ، ولم يتحقق الحاكم أنه من أهل البلاد الأصليين « الانكليز السكسون » فرضت غرامة كبيرة على أهل تلك الناحية لاحتمال أن يكون ذلك القتيل « نورمانياً » . وقد استمر هذا العسف عدة قرون تخللتها مصادمات دموية كثيرة ، حتى أمكن بعد نحو خمسة قرون أخرى أن تبدأ عناصر الأمة الانكليزية في الاندماج ، لتكوين أمة جديدة تسعى إلى إظهار إرادتها ، واسترجاع حقوقها الإنسانية » .

وبعد أن رسم « محمد فريد أبو حديد » هذه الصورة لكيفية تكوين الأمة الانكليزية الحديثة ، وماصاحب هذا التكوين من مآسٍ ، وصراعات دموية ، يعلق على تكوين الأمة العربية الحديثة بقوله :

« يمكننا أن نقول ونحن مطمئنون كل الاطمئنان : إن تطور الأمة العربية ، واندماج العناصر المكونة لها ، كان مثالاً فذاً في تاريخ الأمم الحديثة التي سجل التاريخ تفاصيل حوادثها »[1] .

وهذه الصورة الصادقة للامتزاج بين العرب وغيرهم من الشعوب وبينها شعب مصر ، بشكل يخلو من القهر والقسوة والعنف ، يسجلها رجل له مكانته الكبيرة بين المسيحيين المعاصرين هو « البابا شنودة » ، و « البابا شنودة » ليس رجل دين فقط ، بل هو عالم كبير من علماء التاريخ ، وكان له قبل أن يحتل مكانته الدينية جهد ملموس في الدراسات العلمية التاريخية الراسخة .

يقول « الباب شنودة » في إحدى خطبه « الأهرام في ١٢ ـ ١٠ ـ ١٩٧٧ » :

« عاش المسيحيون في الحكم الإسلامي مع الحكام الذين فهموا القرآن على حقيقته ، وأحبوا السماحة . . عاش النصارى معهم عيشة طيبة ، وفي تلك العصور نجد نموذجاً قد حدث بين المسلمين والمسيحيين ، وظل هذا النموذج ينمو شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى حالة من الوحدة ، ولنا في التاريخ الإسلامي صداقات كثيرة بين حكام المسلمين وبين المسيحيين ، ونرى المسيلمين قد

---

١ ـ أمتنا العربية ـ محمد فريد أبو حديد ـ ص ١١٦

اعتمدوا على المسيحيين كثيراً في ميادين عدة ، لعل من أبرزها الطب والهندسة والأمور المالية . وفي التعليم نرى أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان اختار رجلاً مسيحياً لكي يؤدب ابنه زياد . وزياد اختار كاهناً مسيحياً لكي يؤدب ابنه خالداً . والخليفة عبد الملك بن مروان كان يتخذ « يوحنا الدمشقي » مستشاراً له ، وقد اختار رجلاً معلماً مشهوراً اسمه « أطاناسيوس » لكي يؤدب أخاه عبد العزيز ، ولما صار عبد العزيز بن مروان حاكماً لمصر أخذ « أطانا سيوس » معه كمستشار له ، ونجد أن الأخطل كان من شعراء المسيحيين المشهورين ، اندمج في مجموعة متلازمة مع جرير والفرزدق اشتهرت في العصر الأموي ، وكان الأخطل المسيحي عندما يدخل على المسلمين يقوم المسلمون له إجلالاً لعلمه وأدبه . كما يروي التاريخ الإسلامي . ونرى في التاريخ الإسلامي أمثلة واضحة للسماحة الاسلامية ، نذكر منها أن الخليفة عمر بن الخطاب عندما اقترب من الموت أوصى من يأتي بعده في الخلافة من جهة أهل الكتاب بأمرين : الأمر الأول وفاء العهود التي أعطيت لهم ، والأمر الثاني قال فيه : ولاتكلفوهم فوق طاقتهم عمر بن الخطاب في إحدى المرات حينما كان الوليد بن عقبة والياً على بني تغلب ومن فيهم من النصارى ، هدد الوليد هؤلاء النصارى وتوعدهم ، فعزله عمر ابن الخطاب من الولاية حتى لايلقي بهم شراً . عمر بن الخطاب انتهت حياته على الأرض ، وانتهت مدة خلافته ولكن الخير الذي عمله عمر لم يمت بموته إطلاقاً ، ومازال حياً حتى الآن يملأ الآذان ، ويملأ الأذهان » . .

ويقول البابا شنودة في نفس الخطاب عن الحكم الإسلامي في مصر :

« نجد في التاريخ كثيراً من الخلفاء المسلمين وولاتهم اهتموا بالمسيحيين من كل ناحية ، كان محمد بن طغج الاخشيد يبني بنفسه الكنائس ، ويتولى ترميمها ، وكنيسة « أبي سرجة » في مصر القديمة اهتم ببنائها الخلفاء المسلمون ، وكنيسة « أبي سيفين » القديس « مار قريوس » بمصر القديمة تولى الاهتمام بها الخليفة العزيز بالله الفاطمي ، ولاأستطيع أن أذكر مقدار اهتمام الخلفاء الفاطميين بالكنائس وبنائها وترميمها في العهد الفاطمي ، وإنما أترك هذا الأمر لعالمين كبيرين من علماء الإسلام هما : المقريزي والمسعودي » .

وعن المسيحيين وعلاقتهم باللغة العربية التي هي أساس الوحدة بين أبناء الأمة العربية من جميع الأديان يقول البابا شنودة : « كان « حنين بن اسحق » من أشهر الأطباء في العصر الإسلامي حتى قيل عنه إنه « أبو قراط » عصره و« جالينوس » دهره . و « حنين بن اسحق » تعلم العربية والفقه الإسلامى على يد الإمام « أحمد بن حنبل » وعلى يد « سيبويه » ونبغ فى اللغة العربية نبوغا عظيما ، وبانتشار اللغة العربية في مصر التي تعلمها وأتقنها أقباط مصر ، كانت هذه اللغة مجالاً كبيراً للتوحيد بين الناس ، فكان الأقباط يتكلمون اللغة العربية ، وكان المسلمون في الريف يستخدمون التقويم القبطي في أمور الفلاحة جميعها » .

هذه هى شهادة البابا شنودة عن الإسلام والعروبة في مصر وخارج مصر ، وهي شهادة لها قيمتها الفكرية والحضارية والتاريخية ، خاصة وأنها تصدر من المسيحي الأول في مصر . والذي هو في نفس الوقت مؤرخ وصاحب ضمير علمي حي ، ولايمكن لأحد أن يتهمه بأنه قد نطق بهذه الأفكار لدافع من دوافع السياسة أو الدعاية التي لاتقوم على وعي وإيمان وصدق . والرجل أكبر من أن يكون موضع اتهام من هذا النوع ، ومانطق البابا شنودة بهذه الكلمات إلا لأنه يعرف فيها وجه الحق والتاريخ والصواب الذي لاشبهة فيه .

الشــيخ علي وعــروبة مصـــر

في قصة معروفة ورائعة للدكتور يوسف إدريس اسمها « طبلية من السـماء » نجـد « الشيخ علي » بطل القصـة وهـو يقف في « جرن » قريته « منية النصر » ، ويشكو أحواله من جميع الجوانب بصـوت عال مرتفـع يسمعه أبناء القرية الذين التفوا حوله ، ثم ينتهي « الشيخ علي » من شكواه إلى إعلان تهديد غريب ، حيث يطلب من الله « مائدة من السماء » فيها « جوز فراخ وطبق عسل نحل ورصة عيش ساخن ، على شرط : ساخن : وأوعى تنسى السلطة » .

ثـم يقول ـ وأبناء القرية يسمعون في ذعر ـ « . . ح أعد لغاية عشرة والنبي إن ماجات لي مائدة لكافر وعامل مالا يعمل » . . . وخافت القرية « أن يعملها » الشيخ علي ، ويعلن كفره ، فتصاب القرية كلها بلعنة عظيمة من السماء ، فسارع أهل القرية للبحث عن المـائدة التي يطلبها الشيخ وتوفيرها له « واستدارت الرؤوس تسأل عمن طبخ في هذا اليوم ، إذ أن كل الناس لايطبخون كل

يوم ، وأن يكون عند أحدهم زفر أو « فراخ » بعد حادثاً جللاً .
وأخيراً وجدوا عند عبد الرحمن رطل لحمه « بتلو » بحاله ، فأحضروه على طلبلية ، وأحضروا معه فجلاً ، وجوزين عيش مرحرح ، ومخ بصل ، وقالوا للشيخ علي : يقضيك ده ، وتردد بصر الشيخ على بين السماء والطبلية ، وكلما نظر إلى السماء قدحت عيناه شرراً ، وكلما نظر إلى الطبلية احتقن وجهه غضباً ، والجمع يغمره السكون ، وأخيراً نطق الشيخ علي وقال : بقى أنا عايز مائدة يابلد غجر تجيبوا لي طبلية ، وفين علبة السجاير ، فأعطاه أحدهم صندوق دخانه » .

وظل الشيخ يطلب مطالبه العديدة ، فإن تهاونت القرية في تقديمها فوراً إليه ، « ترك الطعام وخلع جلبابه وعمامته ، وراح يهز عصاه ويهدد بالكفر من جديد » ولايسكت « الشيخ علي » عن تهديده إلا إذا أحضروا له مايريد .

في بعض الأحيان ، وأنا أقرأ لعدد من كتابنا وهم يتحدثون عن عروبة مصر بالتأييد أو بالاعتراض ، أحس أنهم إنما يتحدثون بمنطق « الشيخ علي » فهم يطلبون من الدول العربية الأخرى ـ والغنية منها على وجه الخصوص ـ أن تقدم « مائدة من السماء » عليها كل ماتحتاج إليه مصر ـ في نظرهم ـ وكل ماتريده ، وإن لم تفعل الدول العربية ذلك أعلن هؤلاء الكتاب « كفرهم » بعروبة مصر ، وانصرفوا عن العروبة انصرافاً كاملاً .

ولست أشـك في أن هذا المنـطق غير سليم على الإطـلاق ، فالشعوب لاتغير الحقائق التاريخية الخاصة بها والمبادىء الأساسية التي تؤمن بها بسبب مليار جنيه زائدة ، أو مليار جنيه ناقصة ، والسؤال الأسـاسي الذي ينبغي أن نطرحه على أنفسنا هو : هل عروبة مصر حقيقة تاريخية ، أو أنها خطأ من الأخطاء التاريخية وقع فيه جيل أو أجيال مختلفة ؟ . .

فإن كانت عروبة مصر حقيقة تاريخية ثابتة ، فليس باستطاعة أحد أن يغير حقائق التاريخ الثابتة ، إلا إذا كان هناك من يستطيع أن يغير لون بشرته ، ولون عينيه ، وتركيبة جمجمته .

وعروبة مصر إن كانت حقيقة تاريخية ثابتة ، فإن هذه الحقيقة لم تخلقهـا مسـاعدة الأغنياء العرب لمصر ، ولايمكن أن يمحوها امتناع هؤلاء الأغنياء عن مساعدة مصر .

إن المصالح المتبادلة تلعب دوراً أساسياً في حياة الشعوب ، لا شك في ذلك ، ومن أنكر هذا الأمر فهو ينكر قوة كبرى من القوى المحركة للعلاقات الدولية ، والمؤثرة فيها إلى أبعد درجات التأثير ، ولكن هذا الأمـر شيء ، وربط حقـائق التـاريخ الثابتة ومصائر الشعوب الأصلية بالمصالح العاجلة وحدها أمر خاطىء وخطير ، ولايمكن أن يقوم على منطق صحيح .

إن من واجب الدول العربية الغنية القادرة أن تقف إلى جانب مصر ، في أوقـات المحنـة ، بعـد أن نزفت مصر كثيراً من الدم

وتحملت التضحيات الكبيرة ، حرصاً على الوطن العربي كله ، ودفاعاً عنه وتصدياً شجاعاً لأعدائه . هذا واجب على العرب الأغنياء ، ولاينكره أحد ولايشك فيه إنسان ، وهو واجب أخلاقي وحضاري معاً ، وهو ليس واجباً نحو مصر وحدها ، ولكنه واجب نحو العرب الأغنياء أنفسهم ، فلو أن سفينة مصر غاصت في مياه الشقاء والتعاسة ، ولو أن دورها الحضاري انهار أو تعطل فسوف تصبح الأمة العربية مشلولة تماماً ، وغير قادرة على إنجاز من أي نوع في مجال الحضارة ، أو في مجال الدفاع عن النفس أو في حماية مستقبل الأجيال الجديدة ، ذلك لأن مصر هي المخزن الحضاري البشري للأمة العربية ، وهي العقل والقلب ، وهي أقدم خبرة حضارية متراكمة في العصر الحديث ، حيث بدأت حركة التنوير فيها منذ عصر محمد علي ورفاعة الطهطاوي في أوائل القرن الماضي .

ومصر هي أكبر البلاد العربية سكاناً ، حيث يمثل أهلها أكثر من ثلث سكان العالم العربي ، كما أن مصر استطاعت أن تحقق وحدتها الوطنية منذ وقت طويل ، فليس فيها صراع بين المذاهب الإسلامية وليس فيها صراع بين المذاهب المسيحية ، والصراع بين المسلمين والمسيحيين فيها محسوم في معظم فترات تاريخها الحديث إلا في لحظات قليلة عابرة ، سرعان ماتنتهي وتزول ، وسرعان مايكتشف الجميع أن الأصابع الأجنبية هي التي تلعب أكبر دور في تحريك مثل هذا الخلاف الطائفي في اللحظات القليلة التي يظهر فيها على السطح .

وهكـذا نجـد مصر موحدة حضارياً وثقافياً ، مهيأة دائماً لأن تلعب دورها التاريخي بكامل شعبها وبدون انقسامات أو خلافات عميقة الجذور بين أهلها ، سوى ماكان من خلافات فى الانتماء الطبقي ، وذلك أمر آخر يختلف عما نحن بصدده من حديث عن عروبة مصر ، أي عن الانتماء القومي لمصر .

فعروبة مصر إذن حقيقة تاريخية ثابتة ، وهي قائمة بحكم اللغة الـواحـدة ، والتـاريخ الـطويل المشـترك ، والوحدة الجغرافية ، والأمن ، وسـائر تلك العناصر التي تجمعها مع الوطن العربي في إطار قومي واحد ، وسواء قدم العرب الآخرون مساعدة لمصر ، هي حق مصر عليهم ، أو لم يقدموا هذه المساعدة ، فالمصريون عرب ، وسـواء عرف العـرب الآخرون قدر مصر أو لم يعرفوه ، فالمصريون عرب . ولا يجوز أن نفكر كما يفكر « الشيخ علي » في قصـة « طبلية من السماء » ، فنشترط هبوط « طبلية من السماء » علينا ، فيها ما لذ وطاب ، وإلا كفرنا ، وأعلنا التمرد والعصيان على عروبتنا ،ذلك موقف غير مبدئي من ناحية ، وهو موقف غير منطقي من ناحية أخرى ، فالانسان لايستطيع أن يغير جنسيته أو انتماءه إلى وطنه حتى لو أساء إليه هذا الوطن ، وإذا استطاع فرد واحـد ، أو أفـراد أن يفعلوا ذلـك ، ويغـيروا الجنسية والانتـماء للوطن ، فلا يمكن أن يقـوم بذلك شعب كامل ، بحيث يعلن الشعب الانكليزي مثلاً رفض جنسيته والانتماء إلى الجنسية الفرنسية .

لايمكن أن يقوم شعب كامل مهما كانت الظروف بتغيير جنسيته فجأة ، وبين يوم وليلة . هذا أمر لم يحدث تاريخياً من قبل ، وهو مستحيل من الناحية العملية أيضاً .

إن ربط أي كاتب أو مفكر لعروبة مصر بمدى ماتلقاه من العرب الآخرين من مساعدات هو أمر خاطىء ، ويجب أن يظل ثابتاً في الفكر والعقل أن عروبة مصر حقيقة تاريخية لاتتغير ، طالما أن هناك صفات أساسية جوهرية تثبت هذه العروبة وتؤكدها ، وهي الصفات التي تحدثنا عنها مراراً في الفصول السابقة ، مثل اللغة والارتباط الجغرافي ، والتاريخ المشترك ، والمصير المشترك .

نعود بعد ذلك إلى مناقشة الدكتور لويس عوض ، فيما ينادي به من رفض للقومية العربية ، وتأكيد على أن المصريين ليسوا عرباً ، لأسباب عديدة في نظره ، منها هذا السبب الذي أشرنا إليه وهو « تقصير الدول العربية في مساعدة مصر » . على أن الدكتور لويس لايكتفي بهذا السبب ، بل يضيف إليه بعض الأسباب العملية الأخرى ، حيث يقول في مقاله « معاتبات قومية » « جريدة الأهرام ٢٠ ابريل ١٩٧٨ » مانصه :

« إن الوحدة العربية التي تدعو إليها القومية العربية « غير ممكنة » عملياً ، لأننا لانعيش في فراغ دولي حتى يجوز لنا أن نجدد مثل هذه الأحلام الكبيرة » ولأنه « لايوجد في العالم من يسمح لنا بتكرار هذه التجارب ، أو هذه الأحلام التي تتصل بالوحدة العربية والقومية العربية » .

وهـذا الكـلام الذي يقوله الدكتور لويس عوض ، معناه أن الدكتور يرفض الوحدة العربية والقومية العربية رفضاً عملياً ، أي أنه يرفضهما ، لأن مصر لاتتلقى عملياً مساعدات حقيقية وكافية ـ في محنتهـا ـ من العـرب القـادرين ، وهو يرفض الوحدة العربية والقومية العربية لصعوبة مايهدفان إليه من أحلام عسيرة التحقيق أو على أحد رأيه مستحيلة التحقيق .

وإذا وضعنا هذا الرأي للدكتور لويس عوض إلى جانب آرائه السابقة في رفض « القومية العربية » من الناحية النظرية أصلاً ، وجدنا أنفسنا أمام تناقض حقيقي في آراء هذا الكاتب الكبير .

هل هو يرفض القـومية العـربية رفضاً نظرياً ؟ إذا كان الأمر كذلك فما هو المبرر لأن يقول لنا الدكتور لويس إن ما تدعو إليه القومية العربية من وحدة للوطن العربي هو أمر صعب التحقيق من النـاحية العملية ، لأن هنـاك أعـداء كثيرين يرفضون الوحدة . لنفرض يادكتور أنه ليس هناك أعداء للقوميه العربية ، فهل كان بالامكان أن تعلن إيمانك بالقومية العربية ؟ .

إن آراءك كلها تؤكد أنك ترفض القومية العربية من أساسها كما رأينا في الفصول السابقة ، وهذه الآراء تؤكد أنك ترفض القومية العربية سواء كان لها أعداء أو لم يكن لها أعداء ، وهذا هو الأمر الـواضح الذي تقرأه في كلماتك ، وهذا هو جوهر الخلاف بينك وبين المؤمنين بالقومية العربية .

أما مانقول به من أن هناك أعداء أشداء للقومية العربية ، فلا يوجد من يعارضك فيه أو يختلف معك حوله ، وهؤلاء الأعداء الأشداء هم دليل على صحة فكرة « القومية العربية » ، فلو كانت هذه الفكرة وهماً من الأوهام ، كما تقول ، لما احتاج الوهم إلى ظهور أعداء أشداء يعارضونه ، لأن الأعداء الأشداء لايتجمعون لمحاربة وهم من الأوهام ، بل يتجمعون لمحاربة حقيقة تستطيع أن تخلق واقعاً مقلقاً بالنسبة لهؤلاء الأعداء .

ومن ناحية أخرى ، فهل وجود أعداد أشداء لفكرة من الأفكار يكفي لصرف النظر عن هذه الفكرة وإعلان بطلانها والتنازل عنها ؟ .

متى كان ذلك حديثاً يصح أن يقول به المفكرون لشعوبهم ؟ .
ومتى كان ذلك ظاهرة من ظواهر التاريخ ؟ .

إن كل الأفكار الكبرى بلا استثناء قد ظهرت في ظروف صعبة ووسط أعداء أشداء ، ومع ذلك قاومت هذه الأفكار وصمدت واستمرت حتى استطاعت أن تحقق نصرها على أعدائها .

والناس والشعوب ، على مر التاريخ ، يتمسكون بأفكارهم ومبادئهم على أساس صحة هذه الأفكار والمبادىء أو خطئها ، لاعلى أساس وجود عقبات في طريق هذه المبادىء والأفكار أو عدم وجود هذه العقبات ، فإن كانت هناك عقبات في الطريق انصرفوا عن هذه المبادىء وتركوها وأراحوا أنفسهم منها ، وانصرفوا إلى

مسائل ومبادىء أخرى أيسر وأسهل ، وأقل تعقيداً من غيرها . . هذا شيء لايحدث في التاريخ ، بل العكس هو الذي يحدث ، أي أن الناس تتمسك بما تؤمن به رغم العقبات ، وتحاول دائماً أن تنتصر بإيمانها على ما تواجهه من مشكلات وتعقيدات . وكل المبادىء والقضايا الكبرى في تاريخنا وتاريخ الإنسانية قد واجهت مشاكل عديدة ومعقدة ، ومع ذلك ناضل أصحاب هذه المبادىء والقضايا في سبيل الوصول إلى مايؤمنون به على مر التاريخ .

قضية الاستقلال الوطني في مصر مثلاً كانت قضية مرفوضة تماماً من انكلترا ، أقوى امبراطورية في العالم في أوائل هذا القرن ، ومع ذلك وقف شعب مصر وراء مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ومصطفى النحاس يطالب بالاستقلال التام .

وفي سنة ١٩١٩ ثار شعب مصر الأعزل ضد أقوى قوة مسلحة في العالم في ذلك الحين وهي الجيش الانكليزي ، وكان قائد الثورة هو سعد زغلول ، وكان شيخاً عليلاً ، ولم يكن حاكماً ولاأميراً ولاقائد قوة عسكرية كبيرة أو صغيرة ، ولو أخذنا بنظرية الدكتور لويس عوض ، وخلاصتها أن الفكرة لاتتحقق مادام لها أعداء أشداء ، فإن شعب مصر في سنة ١٩١٩ كان عليه أن يرضى بالممكن والأسهل وهو التحالف ـ بطريقة ما ـ مع الانكليز ، والتنازل عن دعواه في الاستقلال أمام العقبات التي كانت كثيرة وبالغة الصعوبة والتعقيد ، وحيث كان الأمل ضعيفاً في تحقيق

الانتصـار ، ولكن الشعب لم يأخـذ بهذه النـظرية ، وإنما تمسك بقضيته وإيمانه بضرورة الاستقلال والتحرر .

وفي كل مكـان من الـدنيا وفي كل عصر من عصور التاريخ حدث هذا نفسه وأكثر منه . فالنبي محمد عليه الصلاة والسلام عنـدمـا بدأ دعـوته ، كان وحيداً وكانت الدنيا كلها ضده : في مجتمعه ، في الجزيرة العربية ، وخارج هذا المجتمع حيث كانت توجد امبراطوريتان ضخمتان لاتقلان خطراً في عصرهما عن روسيا وأمـريكـا الآن ، وهما الامبراطوريتان الرومانية والفارسية ، ومع ذلك فلم يفكر النبي في أن يكون أقل تواضعاً في دعوته « وأن يركز على هدف أقل شموخاً » وإنما أصر على دعوته كاملة غير منقوصة .

كذلك كان المسيح عليه السلام يعيش في مجتمع يعاديه ، حيث كان اليهود ضده ، وكان الرومان ضده ، وبعض تلاميذه خانوه ، ومع ذلك واصل دعوته حتى النهاية ، وداس فوق كل الصعاب والعقبات .

قد يقال إن هذه رسالات من رسالات السماء ، والقومية العربية رسالة من رسالات الأرض لاينطبق عليها ما ينطبق على الدعوات السماوية .

وهنا يمكن أن نجد في صفحات التاريخ أمثلة عديدة ، وليس الهدف من ذكر بعض هذه الأمثلة أن نعلم الدكتور لويس عوض ،

فهو من أعلم العلماء ، ولكنها تذكرة وقد تنفع الذكرى ، وقد يكون من المفيد أن نعود هنا إلى مثل يتصل بموضوع المناقشة ، فوحدة أمريكا الشمالية قد تعرضت لأزمتين عنيفتين ، أزمه بسبب الاستعمار الانكليزي ، حيث وقف « واشنطن » ليقود شعبه ويواجه الامبراطورية الانكليزية القوية ، وقد انتصر مع شعبه في المعركة ، أما الأزمة الثانية فهي أزمة الانقسام الداخلي الذي أصاب أمريكا في عهد « لنكولن » « ١٨٠٩ - ١٨٦٥ » ، وقد تصدى لنكولن بمنتهى القوة والحزم لهذه الأزمة حتى يمنع انفصال الجنوب الأمريكي عن الشمال الأمريكي ، وكانت المهمة صعبة ، بل وبدت مستحيلة في بعض اللحظات ، ومع ذلك ناضلت أمريكا بقيادة « لنكولن » ، حتى تمت الوحدة الأمريكية التي بقيت إلى اليوم ، حيث لم يتردد « لنكولن » في خوض حرب شاملة بالغة العنف ضد الجنوب .

وهناك أمثلة أخرى عديدة من ثورات الشعوب ، ابتداء من ثورة فرنسا سنة « ١٧٨٩ » إلى ثورة روسيا « ١٩١٧ » إلى ثورة مصر « ١٩٥٢ » إلى ثورة الجزائر « ١٩٥٤ » ، كل هذه الثورات كانت أحداثاً تبدو في المراحل الأولى صعبة النجاح مستحيلة التحقيق ، وكان أمامها من العقبات ما هو ضخم وعسير ، ومع ذلك أصرت الشعوب على مواصلة السير من أجل تحقيق أهدافها ، ذلك أن الفكرة إما أن تكون صحيحة أو خاطئة ، فإذا كانت صحيحة فإنه لامعنى لرفضها بحجة أن هناك عقبات في الطريق ، أو بحجة أن هناك أعداء أشداء يرفضونها ويعارضونها .

وفكـرة القـومية العـربية ينطبق عليها ماينطبق على غيرها من الأفكار والحركات التاريخية ، فهناك معارضة « علنية وسرية » من الـدول الكبرى ضد القومية العربية ، وهناك حرب على القومية العربية من قوى عديدة داخل الوطن العربي وخارجه . ليكن ، فذلك كله أمر طبيعي ، ولكنه لايمكن أن يكون مبرراً للقول بأنه مادام للفكرة العربية أعداء أشداء « فلنكن أكثر تواضعاً ولنركز على أهداف أقل شموخاً » كما يقول الدكتور لويس عوض .

على أن الأهداف المتواضعة التي يتحدث عنها الدكتور لويس عوض ، والتي ينبغي أن تحل محل القـومية العــربية والـوحـدة العـربية . . هذه الأهداف نفسها لايمكن ـ في التفكير الواقعي السليم ـ أن تتحقق بدون حركة قومية عربية شاملة أصيلة ، فمن الأهداف الأقل تواضعاً والتي يطرحها الدكتور لويس عوض هدف « احتواء اسرائيل » ، فكيف نحتوي اسرائيل بدون تضامن عربي أصيل نابع من إيمان عميق بالقومية العربية ، ووحدة الشخصية العربية في وجه الخطر الاسرائيلي ؟ . . إن اسرائيل هي نوع من التحدي الحضاري الكامل للوطن العربي كله ، ومالم يعرف وطننا العربي طريقه إلى الوحدة ، كما توحد هذا الوطن ضد الصليبيين والتتار ، فلا نجاة لأحد ، ولو ذهب إلى « جبل » وتصور أن هذا الجبل سوف يعصمه من ماء الطوفان . . إن الخطر الاسرائيلي خطر داهم على الفرات ، والنيل ، والليطاني ، والأردن ، وكل الأنهار ، والمدن ، والصحاري ، والمرتفعات ، والجبال ، مادامت عربية ،

وإسرائيل كالسرطان ، إن استمر في عضو واحد ، فسوف يمتد إلى سائر الأعضاء ، وإن لم ينهض الجسد كله لمقاومة هذا السرطان واحتوائه فقل على هذا الجسد السلام .

وهذا هو مايمكن أن يقال عن الهدف الثاني « الأقل شموخا » والذي يطرحه الدكتور لويس عوض بعد هدف « احتواء اسرائيل » . . هذا الهدف الثاني « الأقل شموخاً » هو أن « نبني أنفسنا » ، فكيف نبني أنفسنا إذا لم نعترف بعروبة مصر ونعمل على أساس هذا الاعتراف ، وننظم أمورنا وخططنا على اعتبارنا جزءاً من الوطن العربي الكبير ، وجزءاً من الشعب العربي الكبير ، في الثقافة والاقتصاد وسائر المصالح الأساسية التي تحدد مصائر الشعوب ؟ .

بدون عروبة مصر فإنه لامعنى للكتاب المصري ، ولا للفيلم المصري ، ولا للصناعة المصرية ، ولا أكثر من ألف عام نتكلم فيها اللغة العربية ، ونقدم الشهداء للأرض العربية إذا مادق التتار باب بغداد ، أو ذق الصليبيون أبواب الشام ، أو دق الفرنسيون والطليان أبواب المغرب العربي .

ثم من الذى سيسمح لنا ببناء أنفسنا إذا كنا دولة بلا انتماء ، وليس لها تأثير على مجال حضارى واسع هو المجال العربي الذى تمثل مصر فيه نقطة الارتكاز الرئيسية ؟ .

ولايجوز أبداً ، في العقل والضمير ، أن ننظر إلى عروبة مصر ،

كما كان « الشيخ علي » ينظر إلى قضية إيمانه بالله ، « فالشيخ علي » كان يطلب مائدة من السماء عليها مالذ وطاب حتى لايكفر بالله ، وبعضنا يطلب ثمناً عربياً من الدول الغنية تقدمه إلى مصر ، لكى تستمر مصر في إيمانها بعروبتها ، وهذا أمر غير سليم ، وحساب حضاري لايليق بمصر ، ولابأصحاب المبادىء والأفكار ، كذلك لايجوز أن ننظر إلى عروبة مصر ، وإلى فكرة القومية العربية ، وفكرة الوحدة العربية ، على أنها جميعاً مبادىء صعبة ، يحيط بها أعداء كثيرون ، وعلينا لهذا السبب أن نتخلى عن تلك الأفكار جميعاً حتى لو كانت أفكاراً صحيحة . . ذلك أيضاً خطأ لايبرره تاريخ النضال الإنساني من أجل معتقدات آمن بها البشر وكافحوا من أجل نصرها وتحقيقها وإخراجها من الظلام إلى النور .

عروبة مصر
والأمن القومي

يؤكد الدكتور لويس عوض في مقالاته الثلاث المنشورة بالأهرام « ٧ - ٤ - ١٩٧٨ » و « ٢٠ - ٤ - ١٩٧٨ » و « ١١ - ٥ - ١٩٧٨ » ، أن العلاقة بين مصر والبلاد العربية لاتقوم إلا على أساس واحد هو : أمن مصر القومي .

وتبدو هذه الفكرة في ظاهرها شديدة الإغراء بالموافقة عليها والترحيب بها ، إلى الحد الذي دفع بعض المفكرين القوميين في مصر ، مثل « الدكتور محمد سعيد علي » إلى الموافقة على هذه الفكرة والترحيب بها ، على أساس أنها تعني أن الارتباط بين مصر والعرب جوهري ، كما أن هذه الفكرة توحي بأن الدكتور لويس عوض يعترف بوجود رابط مصيري بين العرب ومصر ، رغم أنه يرفض فكرة القومية العربية رفضاً كاملاً . وهذا الاعتراف من جانب الدكتور لويس عوض يثير غبطة المفكرين القومين ، لأنهم بذلك يكونون قد كسبوا من الدكتور لويس تأييداً جزئياً لوجه مصر العربي .

ولكنني أختلف مع الدكتور لويس عوض ، ومع الدكتور محمد سعيد علي ، وغيرهما من المفكرين حول هذه القضية أشد الاختلاف ، لأن التفكسير المتهمل المتأني في هذه القضية سوف يكشف لنا مافيها من مخاطر عميقة ، وأخطاء عديدة .

إن الدفاع عن أمن مصر القومي لايمكن أن يكون أساساً كافياً لتفسير العلاقة بين مصر والعرب لأن مصر في هذه الحالة تتساوى مع دول عديدة خارج الوطن العربي ، بل أكثر من ذلك فإن هناك دولاً « متناقضة » تناقضاً حضارياً وسياسياً كاملاً مع البلاد العربية ، تقيم سياستها على أن أمنها القومي مرتبط تمام الارتباط بالمنطقة العربية . فإيران على سبيل المثال تقيم سياستها على أساس أن أمنها القومي مرتبط بالعالم العربي أشد الارتباط ، فهناك حدود مشتركة بينها وبين الخليج العربي ، وحدود مشتركة بينها وبين العراق ، ومايقع في العالم العربي من أحداث يترك تأثيره القوي المباشر على إيران ، وهذا الارتباط في « الأمن القومي » الذي تراه إيران بينها وبين العالم العربي لن يجعل من إيران جزءاً من العالم العربي ، فهي دولة خارج هذا العالم ، بلغتها الفارسية وتراثها المستقل عن التراث العربي كما أنها دولة لها مطامع تاريخية عديدة وغير عادلة فى الأرض العربية ، ولايمكننا أن نقول إن مصر في علاقتها بالعالم العربي تشبه إيران في هذه العلاقة ، مادام الدفاع عن الأمن القومي بالنسبة لهما مرتبطاً بالعالم العربي . إن مصر جزء من العالم العربي ، أما إيران فليست جزءاً من هذا العالم ، رغم أن

مصر وإيران يرتبطان بالعالم العربي كل الارتباط ، من ناحية الأمن القومي .

ومن ناحية أخرى فهناك تركيا التي ترتبط في أمنها القومي مع العالم العربي ، فهي أيضاً دولة مجاورة للعالم العربي ، ولها تاريخ مشترك مع العرب استمر مايقرب من خمسمائة سنة ، فهل تتساوى مصر فى تركيا في علاقتها بالعالم العربي تحت هذا المبدأ أو الشعار البراق ، وهو « الأمن القومي » ؟ كلا بالطبع ، إن تركيا تقف الآن خارج العالم العربي لغة وحضارة ، ومصيراً ومستقبلاً ، أما مصر فهى تقع فى قلب العالم العربي لغة وحضارة ومصيرا ومستقبلا ، ولامجال على الإطلاق للقول بأن درجة الارتباط بالعالم العربي هي درجة واحدة ، متساوية في مصر وتركيا على السواء .

ونحن نجد أيضا أن اسرائيل تقول إنها مرتبطة بالعالم العربي ولابد لها أن تحمى أمنها القومى فى داخل العالم العربي حتى ولو بتغيير الحدود من وجهة نظرها ، وإسرائيل هي دولة تم زرعها بطريقة صناعية مفتعلة في قلب العالم العربي بين مشرقه ومغربه ، ومع ذلك فدعوى « الأمن القومي » لاسرائيل لاتجعل لهذه الدولة أي علاقة بالعالم العربي ، سوى علاقة التناقض والعداء .

والدول الاستعمارية التي غزت العالم العربي كانت كلها تتحرك تحت دعوى حماية أمنها القومي ، فانكلترا احتلت مصر بحجة حماية أمنها القومي ، وحماية قناة السويس ، التي تمثل الشريان الرئيسي لمواصلاتها العالمية في الحرب والسلام

وتحت حجة الدفاع عن الأمن القومي اندفعت انكلترا إلى العراق والخليج وفلسطين ، وهذا الادعاء بحماية الأمن القومي لم يجعل لانكلترا مكانة في العالم العربي ، سوى مكانة الدولة الاستعمارية المرفوضة ، والتي ظلت البلاد العربية تسعى للتحرر منها منذ أن وطئت انكلترا أرض مصر سنة ١٨٨٢ بعد هزيمة المصريين الذين كان يقودهم أحمد عرابي في معركة التل الكبير ، بل وقبل ذلك عندما استولى الانكليز على ميناء عدن سنة ١٨٣٩ ، وقد توالت الحملات الانكليزية الاستعمارية على البلاد العربية بحجة الدفاع عن الأمن القومي الانكليزي ، وحماية طرق المواصلات والتجارة مع الهند ، وهذا مافعلته سائر دول أوروبا الغربية ، في حملاتها على البلاد العربية المختلفة تحت نفس الادعاء وهو « حماية الأمن القومي » فما يقال عن انكلترا يقال عن فرنسا ، وألمانيا النازية بزعامة هتلر ، وإيطاليا الفاشية بزعامة موسوليني .

فدعوى الأمن القومي يمكن أن تكون أساساً للسياسة في دول تربطها بالعالم العربي روابط الجيران مثل تركيا وإيران ، ويمكن أن تكون أساساً لسياسة عدائية ضد العالم العربي مثلما هو حادث في اسرائيل ، ويمكن لدعوى الأمن القومي أيضاً أن تكون حجة تعتمد عليها السياسة الاستعمارية كما حدث في موقف انكلترا ، ودول أوروبا الغربية من العالم العربي .

وهكذا فإن الأمن القومي ـ من الناحية النظرية والعملية معاً ـ لا يصلح أبداً كأساس لتفسير العلاقة بين مصر والعالم العربي ،

فمن أبسط نتائج هذا التفسير أنه يجعل مصر متساوية في علاقتها بالعرب مع تركيا وإيران ، وهذا أمر واضح الخطأ ، لأن مصر ترتبط مع العالم العربي بعلاقة أقوى وأعمق من ارتباط تركيا وإيران بهذا العالم ، وعلاقة مصر بالعالم العربي تختلف في الدرجة والنوع عن علاقة تركيا وإيران بالعالم العربي .

ولو وضعنا الأمن القومي أساساً للعلاقة بين مصر والعالم العربي ، لاختلط الأمر في هذا المجال أشد الاختلاط بين مصر واسرائيل وانكلترا . فإسرائيل تنادي ـ كما سبقت الإشارة ـ بأن أمنها القومي مرتبط بالعالم العربي ، وانكلترا تقول بأن أمنها القومي مرتبط بالعالم العربي ، وقد حاولت انكلترا في الخمسينات ، أن تبرر دعوتها إلى حلف بغداد بأنه دفاع عن الأمن القومي المشترك للعرب والانكليز ، وحاولت انكلترا من قبل ، وفي سنة ١٩٤٦ أن تقيم مع اسماعيل صدقي رئيس وزراء مصر في ذلك الحين معاهدة للدفاع المشترك ، رفضها شعب مصر رفضاً باتاً ، وكانت حجة انكلترا في هذه المعاهدة هي الدفاع عن الأمن القومي المشترك لمصر وانكلترا ، وكان الذي يهدد هذا الأمن في نظر انكلترا هو روسيا .

فالأمن القومي لايصلح أساساً للارتباط بين مصر والعالم العربي من هذه الناحية ، وهناك جانب آخر يكشف لنا أن قضية الأمن القومي ليست هي أبداً أساس الارتباط بين مصر والعالم العربي ، فأمن مصر القومي مرتبط ببلاد عديدة أخرى خارج العالم العربي ، فهو مرتبط بقبرص التي كانت قاعدة لضرب مصر في العدوان

الثلاثي سنة ١٩٥٦ عسكرياً وإعلاميا ، فمنها انطلقت الجيوش الغازية في العدوان الثلاثي ، ومنها انطلقت إذاعة الشرق الأدنى في فترة الغزو لتملأ نفوس المصريين بروح الهزيمة ، ولتمهد عقولهم لتقبل الاستعمار الجديد تحت العلم المثلث : علم انكلترا ، وعلم فرنسا ، وعلم اسرائيل . وإذا كان أمن مصر القومي مرتبطاً بقبرص ، فهل يمكننا هنا أن نقول إن قبرص تتساوى في علاقتها مع مصر بالدولة العربية الأخرى المحيطة بها ؟ بالطبع لا ، فإن قبرص لاتتساوى مع أي دولة عربية في علاقتها بمصر على الإطلاق ، وكذلك فإن . أمن مصر القومي ، يتصل أشد الاتصال ببلاد إفريقية غير عربية ، فهل تتساوى هذه البلاد الإفريقية غير العربية في أهميتها بالنسبة لمصر .

ومن هنا فإن مايقول به الدكتور لويس عوض من أن أساس العلاقة بين مصر والعالم العربي هو « الأمن القومي » لمصر . هذا القول لايمكن أن يكون صحيحاً ، لأنه يجرد علاقة مصر بالعالم العربي من عناصر أساسية وجوهرية ، وأهم هذه العناصر عنصر اللغة الواحدة ، وعنصر التراث الثقافي والحضاري المشترك لمدة ثلاثة عشر قرناً متصلة من الزمان . ولو أننا اقتصرنا على اعتبار الأمن القومي أساساً للعلاقات العربية المصرية فلا مفر من أن نصل إلى هذه النتيجة الخاطئة المرفوضة ، والتي أشرنا إليها ، وهي أن مصر ستكون بالنسبة للعالم العربي في مستوى الدول المجاورة مثل إيران وتركيا ، وفي هذه الحالة أيضاً فإن مصر تستطيع أن

تنفض يدهـا من القضـايا العربية المختلفة ، وعلى رأسها قضية فلسطين إلا في حدود مايضمن لها أمنهاالقومي الخاص ، فما دامت مصر تستطيع حماية حدودها شرقاً في سيناء ، وغرباً في الصحراء الغربية ، وجنوباً على الحدود المصرية السودانية ، فلا خوف على المصريين ولاهم يحزنون . هذا التفكير هو نوع جارف من الخطأ الذي لايقوم على أساس علمي أو تاريخي أو واقعي .

ويمكننا أن نستطرد قليلاً في هذا المجال إلى صفحات التاريخ لكي نعـرف تمامـاً أن الـذين كانـوا يحتلون فلسطين ـ في مختلف العصور ـ إنما كانوا يتجهون في نفس الوقت إلى مصر ، ويقصدون احتلالها والسيطرة عليها ، وهذه الظاهرة لايفسرها ارتباط الأمن القـومي لمصر بالبلاد العربية ، بل يفسرها ارتباط المصير الكامل لمصر بالبلاد العربية .

إن الصلبيين الـذين احتلوا القـدس وعكـا وغيرهما من مدن فلسطين والشام ، هم أنفسهم الذي اتجهوا بعد قليل إلى دمياط والمنصـــورة ، وحـــاربهم المصريون في قلب الـدلتـا ، وانتصروا عليهم . وفي العصر الحديث ، ظهرت فكرة إقامة دولة اسرائيل منذ البداية لكي تكون عاملاً أساسياً في هدم قوة مصر ، والوقوف في وجه نهضتها منذ عهد محمد علي ، وهذه كلها حقائق ثابتة في صفحات التاريخ ، فقد كان « بالمرستون » وزير خارجية انكلترا ورئيس وزرائها بعد ذلك يخطط منذ بدايات القرن الماضي لهدم مصر ، وإسقاط محمد علي ، وفي سنة ١٨٣٩ « أشار بالمرستون في

توجيهه إلى أول نائب للقنصل البريطاني في القدس ، واسمه يونج ، إلى أن إحدى مهامه الأساسية حماية اليهود إلى أقصى حد » وفي نفس الوقت بعث « بالمرستون » الى سفيره في تركيا واسمه « بونسومبي » يطلب منه « أن يوضح للسلطان العثماني أن من المفيد للسلطان قائدة قصوى لو خصل اليهود القاطنون في مختلف بلدان أوروبا وأفريقيا على حوافز وإغراءات للهجرة إلى فلسطين ، وذلك لأن ثرواتها وإمكانياتهم في تدبير الأمور الإدارية والصناعية ، ستساعد لدرجة كبيرة على زيادة موارد الامبراطورية التركيه ، وتقدم الحضارة فيها » [1] .

وقد كان الهدف الحقيقي « لبالمرستون » هو تقويض أركان الدولة المصرية الناهضة المتقدمة في عصر محمد علي ، وكان هدفه الواضح هو القضاء على الجيش المصري الذي كان قد استطاع بقيادة ابراهيم باشا ، أن يضم الشام كلها إلى مصر في دولة واحدة ، كما اتجه إلى ضم سائر البلاد العربية في الدولة الجديدة القوية تحت علم واحد هو : العروبة .

وعندما أرغمت مصر على التوقيع على معاهدة ١٨٤٠ ، والتي تقضي بانسحاب الجيش المصري من الشام ، احتل الانكليز القدس ، وقطعوا الطريق على الجيش المصري العائد إلى بلاده ، ولم يلتزم الانكليز بالمعاهدة .

---

١ ـ أوروبا ومصير الشرق العربي ـ د . جوزيف حجار ـ الفصل الثالث ٢٢٧ ـ ٢٥٠ .

« وكان جلاء القوات المصرية من سوريا وفلسطين أمراً في غاية الصعوبة ، وذلك لأن البريطانيين الذين احتلوا القدس ، قطعوا طريق الانسحاب على المصريين ، واضطر ابراهيم باشا إلى الانسحاب عن طريق الصحراء فيما وراء نهر الأردن ، ولم يصل إلى غزة من ٦٠ ألف جندي مصري إلا ٢٤ ألفاً ، وذلك يعني أن البريطانيين بعد توقيع معاهدة الصلح سنة ١٨٤٠ قد حكموا عمداً على ٣٦ ألف جندي مصري بالموت والهلاك بسبب الجوع والبرد والعطش والأمراض » .

وعلى أثر هذه المأساة صدر قرار من السلطان العثماني تحت ضغط « بالمرستون » بتقليص الجيش المصري إلى ١٨ ألف جندي ، وأصبح ممنوعاً على مصر أن تقوم ببناء السفن الحربية ، وبدأ تدهور مصر منذ ذلك الحين ، حتى تم سقوطها في يد الاستعمار الانكليزي نهائياً سنة ١٨٨٢ . . . وهكذا نهضت مصر في عصر محمد على عندما ارتبطت ارتباطاً عضوياً كاملاً بالبلاد العربية الأخرى ، وبدأ انهيارها وسقوطها عندما فقدت هذا الارتباط ، وقد أصبح الأمر أشبه بقانون تاريخي ثابت ، فكلما ارتبطت مصر بالعالم العربي ازدهرت ونهضت ، وكلما انقطع ارتباطها بالعالم العربي سقطت وانهارت .

نخرج من ذلك كله بأن العلاقة بين مصر والبلاد العربية ليست أبداً مجرد مسألة « أمن قومي » لمصر تحرص فيه على حدودها الجغرافية المعروفة وتحميها ، بل إن المسألة في حقيقتها هي مسألة

« الـوجـود القومي » لمصر ، وماتصاب به البلاد العربية لابد أن يصيب مصر ، بل إن من أهم الأهداف في أي هجوم على البلاد العربية إنما هو دائماً ضرب مصر ، والإحاطة بها من كل جانب ، وذلك منذ أن أصبحت مصر مركزاً للحضارة العربية بكل صورها الثقافية والسياسية والاقتصادية والعسكرية .

ولقـد يرى البعض أن سياسة الاستعمار الانكليزي في القرن المـاضي كانت تهدف أسـاسـاً إلى القضـاء على الامـبراطـورية العثمانية ، ولكن ذلك غير صحيح بالنسبة لهذه الفترة التي نتحدث عنهـا وهـي النصف الأول من القـرن المـاضي ، ذلـك لأن الامـبراطـورية العثمانيةكانت قد سقطت ـ عملياً ـ على يد محمد علي ، وعلى يد الدولة المصرية العربية الناهضة في ذلك العصر ، كما أن الأمة العربية كانت قد أوشكت أن تحقق وحدتها القومية في تلك الفترة ، أي قبل أن تتحقق وحدة إيطاليا ، ووحدة ألمانيا بما يقرب من أربعين سنة ، ولكن الاستعمار الانكليزي تصدى للأمة العربية الناهضة ، ووجه إليها ضربات في الصميم والقلب ، وركز هذه الضربـات على مصر ، وكـان « بالمرستون » يجاهر بكراهيته لمحمد علي وحقده عليه ، وعلى مصر فيقول : « إنني أكره محمد علي الذي أعتبره بربرياً جاهلاً أحرز النجاح عن طريق التحايل والـذكـاء ، وأنـا أعتـبر حضـارتـه التي تكال لها المدائح هراء في هراء » . ولم تكن حضارة مصر في عهد محمد علي « هراء في هراء » كما يقول « بالمرستون » ، بل كانت حقيقة ناصعة ، ولكنها الأطماع

الاستعمارية المتمكنة من قلب « بالمرستون » هي التي صورت له الأمر على هذه الصورة ، بينما كان المفكرون الغربيون المنصفون المعاصرون لمحمد علي وبالمرستون معاً يقولون عن محمد علي مامعناه « إنه الوحيد الذي استطاع أن يخلق رأساً جديداً مفكراً بدل الرأس التركي المتخلف عن روح العصر الحديث » .

وخلاصة القول في هذه النقطة ، أن الأساس الوحيد الذي أقام عليه الدكتور لويس عوض تفسيره للعلاقات المصرية العربية أساس غير كافٍ وغير سليم على الإطلاق ، وهذا الأساس هو « الدفاع عن الأمن القومي الإقليمي لمصر » ، فهذا الأمن القومي لمصر يرتبط بعديد من البلاد الأخرى غير البلاد العربية ، ولكن مصر ترتبط بالعالم العربي ارتباطاً أقوى من ارتباط الجار بالجار ، وهذا الارتباط هو ارتباط الرأس بالجسد ، وارتباط القلب بجسم الإنسان .

فالبلاد العربية ليست مجرد سلاح في يد مصر ، بل هي اليد نفسها ، لأن السلاح يمكن أن يتغير ، أما اليد فلا تتغير إلا إذا انكسرت وتشوه الجسد .

والبلاد العربية ليست مجموعة من الحراس لحدود مصر الشرقية أو الغربية أو الجنوبية ، ولكن البلاد العربية تمثل امتداداً لشعب مصر ، كما يمثل شعب مصر امتداداً للشعب العربي في البلاد الأخرى .

هذه حقيقة وليست وهماً من الأوهام ، لأن الرابط الأساسي بين المصريين والعرب هو رابط « الوجود القومي » ، وليس هذا الرابط هو مجرد « الأمن القومي » .

إن الوهم الأكبر هو أن نقيم علاقة مصر ـ عملياً أو نظرياً ـ على أساس فكرة « الأمن القومي » فلو أخذنا فكرة هذا الأمن القومي الاقليمي المحدود كمعيار لعلاقات مصر وسياستها في العالم ، لكان يكفي في سبيل تحقيق هذا النوع من الأمن أن نتحالف عسكرياً مع دولة كبرى ، أو أن ندخل حلفاً عسكرياً كبيراً مثل حلف الأطلنطي ، وعند ذلك نعتبر أنفسنا دولة من دول البحر الأبيض المتوسط مثل إيطاليا وفرنسا ، وسوف نجد في هذا الموقف حلا للأمن القومي المحدود ، ولكن المشكلة أخطر من ذلك ، وأعمق ، إنها مشكلة الشخصية المصرية وحضارتها ومصيرها ودورها في المجتمع الإنساني ، وهي في عبارة واحدة مشكلة « الوجود القومي » لمصر ، وليست « مجرد » مشكلة « الأمن القومي » ، وهنا لابد أن ندرك كما أدرك غيرنا من الأعداء ، قبل الأصدقاء ، أن العالم العربي ، ومصر في مقدمته وقلبه ، هو وحدة قومية وحضارية واقتصادية وعسكرية ، وثقافية ولغوية واحدة ، وأن الهدف من ضرب أي جزء من أجزاء العالم العربي هو ضرب مصر ، وأن الهدف من ضرب مصر هو ضرب العالم العربي ، أو « الوطن العربي » كما نحب أن نقول ، نحن الذين نؤمن وننادي بعروبة مصر وبالقومية العربية ، ونرى الأمر أمامنا في النهاية

واضحاً غاية الوضوح ، وهو أن مصر لابقاء لها بدون العرب ، وأن العـرب لابقـاء لهم بدون مصر ، وأن الرابط الأساسي بين مصر والعرب هو رابط « الوجود القومي » وهو أعمق وأشمل وأبعد خطراً في تحديد مصائر الشعوب من « الأمن القومي » .

عروبة مصر وحياد الحكيم - ١ -
خرافة الوحدة العربية !

للكاتب اليوغسلافي العالمي الكبير « ايفو أندريتش » رواية رائعة هي « جسر على نهر درينا » وقد ترجمها إلى العزبية الأديب الكبير المرحوم « الدكتور سامي الدروبي » ، ضمن ترجماته الممتازة لروائع الأدب العالمي . وفي هذه الرواية يرسم لنا الكاتب العالمي صورة مؤثرة لشخصية طريفة تمثل نوعاً خاصاً من مآسي البشر في هذه الدنيا ، وصاحب هذه الشخصية هو « علي خجا » وهو إنسان بسيط وطيب ، كان يعيش في مدينته التي تقع على نهر « درينا » في يوغسلافيا ، خلال الحرب العالمية الأولى « ١٩١٤ - ١٩١٨ » ، وكان يملك « دكاناً » صغيراً يرتزق منه ، وعندما اشتدت وطأة الحرب العالمية الأولى ، ووصلت أصداؤها إلى المدينة التي يعيش فيها « علي خجا » ، وبدأ قصف القنابل والمدافع يتردد بأصواته المدوية في هذه المدينة قال « علي خجا » لنفسه : إنه لا علاقة له بهذه الحرب ولامصلحة له فيها ، وعليه أن يذهب إلى دكانه ويغلق بابه على نفسه ، ويترك المتحاربين في صراعهم العنيف الجبار ، ولن يصيبه سوء ، وفي ظلمات هذا الدكان الضيق أحس « علي

خجا » بالأمن والهدوء ، وأحس بصمت غير مألوف يخيم في الخارج أيضاً ، صمت لاتعكره ـ وتلك معجزة ـ أيه قرقعة ، ولايقطعه أي صوت من أصوات البشر ، ولايفسده وقع خطوات الأقدام ، إن شعوراً بالسعادة والشكر يملأ قلب « علي خجا » . قال « على خجا » لنفسه « عن دكانه الصغير » : ها . إن بضعة ألواح من الخشب تغدو كسفينة من سفن المعجزات ، فإذا هي كافية لأن تحمي ولأن تنقذ مؤمناً من المؤمنين بالدين الحق ، تحميه وتنقذه من جميع الشرور ، ومن جميع ضروب الشقاء ، تحميه وتنقذه من جميع الهموم التي لامخرج منها ، تحميه وتنقذه من المدافع التي تتقيأ النيران ، مدافع عدوين فوق رأسك ، عدوان كلاهما كافر ، لست تعرف أيهما شر من الآخر . وقال « علي خجا » لنفسه فرحاً وهو يقيم في دكانه المغلق : لم تهدأ الدنيا هذا الهدوء كله منذ أول أيام الحرب . . ماأعذب الصمت وماأجمله . . فبعودة الصمت تعود إلى المرء ولو إلى حين بقية من تلك الحياة الإنسانية ، التيمانفكت تضعف منذ مدة طويلة ، والتي تزول تحت قصف المدافع زوالاً تاماً ، إن الصمت يناسب الصلاة ، بل إنه في ذاته صلاة » .

وبينما « علي خجا » ، يتأمل ويعيش في جو من الأفكار الهادئة ، السعيدة ، شاعراً أنه قد ابتعد عن مشاكل الحياة ، وأنه قد وجد المأوى الهادئ البعيد تماماً عن مآسي الحرب التي لايشعر أنه مرتبط معها بعلاقة من أي نوع . في هذا الهدوء الكامل ، والسعادة الغامرة أحس « علي خجا » أن الكرسي الصغير ـ الذي

كان يجلس عليه - يطير من تحتـه ويرفعه ، فكأنه ريشة في مهب الريح . إن الصمت « العذب » قد انقطع ، واستحال فجأة إلى رعد أصم . ثم إلى قرقعة مدوية تملأ الفضاء وتمزق أذنيه ، ويرتفع صوتها حتى يصبح فوق مايطيقه سمع الإنسان ، وانخلعت أرفف الجدار المقابل ، وطارت البضائع في شتى الأنحاء ، وأخذت هذه البضائع ترتطم بوجهه وسائر أجزاء جسده ، وأخذ « علي خجا » : يئن : آخ ، أو قل إن عقله هو الذي أخذ يئن ، لأنه هو نفسه لم يبق له صوت ولاسمـع . كما أم مكـانـه لم ي بق في هذه الحياة الدنيا ، إن ضجة تصيب الإنسان بالصمم قد خنقت كل شيء ، وحـطمت كل شيء ، واجتثت كل شيء ، وأطارت كل شيء ، أهي القيامـة ؟ ! أهي السـاعـة التي يتحدث عنها كتاب الله ، ويتحدث عنها الراسخون في العالم ؟ أهي الساعة التي يزول فيها هذا العـالم الفاني ، في طرفة عين ، كأنه شرارة تنطفيء ؟ ولكن ماحاجة الله إلى هذه الضجة كلها وهو الذي إن أراد شيئاً قال له كن فيكـون ؟ ! لا ، ليس هذا من صنـع الله ، ولكن من أين للإنسان أن يملك هذه القوة الجبارة كلها ؟ ! . »

هكذا كان « علي خجا » يفكر وهو في دكانه الصغير ، وقد ظن أنـه هرب من كل المشـاكل ، وابتعد عن ضجيج الحرب ، فإذا بالمـأساة تمتد إليه في مأمنه . وماهي إلا لحظات قليلة حتى مات « علي خجا » متأثراً بالدامار الذي أصاب دكانه ومزق جسده ، وهو قائم فيه ، يظن أن الاختفاء في هذا الدكان وإغلاق بابه على

نفسه سوف يحقق له كل السعادة والأمن والابتعاد عن الضجيج والمتاعب ، وعن كل هؤلاء المجانين الذين يتحاربون خارج الدكان .

وقد تذكرت قصة « علي خجا » هذه ، وأنا أقرأ مقالات الكاتب الكبير : « توفيق الحكيم » والتي يدعو فيها إلى « حياد مصر » ، فالشبه هنا واضح بين فكرة « علي خجا » الذي أحس بالمشاكل المعقدة من حوله ، فطلب لنفسه الحماية والأمان في دكانه الصغير ، وأغلق باب الدكان على نفسه ظناً منه أنه بذلك يبتعد عن كل المشاكل والأزمات ، وستوصل إلى الهدوء والاطمئنان وراحة البال . الشبه هنا واضح بين هذه الفكرة في رأس « علي خجا » ، وبين فكرة توفيق الحكيم عن حياد مصر ، فالحياد هو الدكان الصغير ، الذى يريد توفق الحكيم لمصر أن تعتصم به فتبتعد بذلك عن المشاكل والصعوبات التى تتعرض لها في هذه المرحلة من حياتها ، وفي دكان « الحياد » الصغير تستطيع مصر كما يتصور توفيق الحكيم أن تهدأ وتطمئن وتسعد وتحل كافة المشكلات التي تعانيها ، وهذا هو مايقوله توفيق الحكيم بالنص « الأهرام ٣ مارس ١٩٧٨ » :

« لن تعرف مصر لها راحة ، ولن يتم لها استقرار ، ولن يشبع فيها جائع إلا عن طريق واحد يكفل لها بذل مالها لإطعام الجائعين والمحتاجين ، وتكريس جهدها للتقدم بالمتخلفين ، وتوجيه عنايتها إلى الارتقاء بالروح والعقل ، في مناخ الحرية والأمن والطمأنينة ،

وهـذا لن يكـون أبـداً مادامت الأموال والجهود تضيع بعيداً عن مطالب الشعب ، بدافـع من مشكـلات خارجية ودولية تغـذيها الأطماع الداخلية ، والشخصية ، . ماهو الطريق إذن إلى واحة الراحة والاستقرار وطعام المعدة والروح والعقل ؟ إن هذه الواحة المورفة المزهرة اسمها « الحياد » .

هذا هو ماينادي به توفيق الحكيم ، أن تكون مصر « محايدة » لاعـلاقـة لها بما يدور حولها ، والحياد الـذي يطالب به توفيق الحكيم ، هو ـ أساساً ـ « انعزال عن العرب » ، و « انطواء على النفس » ، بدليل أن توفيق الحكيم يقـول في مقـال آخر له في الأهرام « ١٣ ـ ٣ ـ ١٩٧٨ » :

« . . . عندما نقول إن العرب أمة واحدة ، لها قضية واحدة ، فهو قول لاأساس له من الواقع ، لأن الواقع هو أن كل دولة عربية لها قضيتها ومواقفها التي تهمها في المكان الأول . . . » كذلك فإن توفيق الحكيم قد نشر في الأهرام مجموعة من آراء المؤبدين له في دعوته إلى الحياد ، حيث يقول واحد من هؤلاء المؤيدين أن رأي توفيق الحكيم « يلتف حوله كل من يؤمن بمصر ، ومصر فقط » .

وإذا راجعنا مقالات توفيق الحكيم في هذا المجال ، وقرأناها بدقة فسوف يتضح لنا تماماً ، أن توفيق الحكيم يتدرج في تفكيره بالصورة التالية :

أولاً : إن مصر تعاني مشاكل صعبة معقدة .

ثانيـاً : إن هذه المشـاكل قد نتجت عن ارتباط مصر بالوطن العربي ، وتورطها في مشاكل هذا الوطن ، « وأهم هذه المشاكل بالطبع : مشكلة فلسطين .

ثالثاً : إن العرب من جانبهم لا يقدمون لمصر مثل ماتقدمه مصر إليهم من جهد ودم ومال .

رابعـاً : إن الحـل الـذي يضمن لنا السلامة ، ويضمن الرخاء والسعـادة لمصر هو « الحياد » ، أي الابتعـاد عن هذه « الأمـة العربية » ، التي هي « أمة » لا وجود لها « واقعياً » كما يقول توفيق الحكيم ، لأن هذه البـلاد العـربية ، من هذه الناحية الواقعية ـ متفرقة ومختلفة على الخريطة الجغرافية والسياسية والحضارية .

هذا هو التسلسل المنطقي لدعوة توفيق الحكيم ، وهو تسلسل يكشف « الأخطاء الجسيمة » التي تكمن في دعوة الكاتب الكبير ، والتي تجعلنا نحس أنه يفكر بطريقة « علي خجا » التي أشرنا إليها ، والتي تقوم على أساس واحد ، هو أن « ينفض يده من المشاكل التي تحيط به ، فيسعد ويسلم ويعتكف ويعيش لنفسه وحدها ، ولقد كانت النتيجـة التي وصـل إليهـا « علي خجا » هي انهيار دكانه الصغير الذي هرب إليه ، ثم موته هو نفسه ، ودماره النهائي .

والفكـرة التي يدعو إليها توفيق الحكيم لايمكن أن تنتهي لو تحققت إلا بنفس النهـاية التي انتهى إليها « علي خجا » . فهذه الفكرة التي تنادي بأن تنفض مصر يدها مما حولها من المشكلات ،

ومن انتمائها إلى الأمة العربية ، لن تحقق لها سلاماً أو رخاء أو سعادة ، بل ستجر عليها المشاكل والمصاعب الكثيرة المعقدة .

ويكفي أن نطرح على أنفسنا سؤالاً محدداً هو : هل حياد مصر ممكن ؟ والإجابة الصحيحة التي تؤكدها وقائع التاريخ هي بلا جدال :

إن هذا الحياد غير ممكن على الإطلاق .

وإذا كانت قصة « علي خجا » تقدم لنا نموذجاً من النماذج الفنية التي حاول مؤلف القصة من خلالها أن يقول : إن حل مشكلات الحياة لايكون بالهروب منها ، والاختباء في ركن صغير بعيداً عن هذه المشكلات ، بل إن الحل الصحيح هو مواجهة المشكلات ، مواجهة صريحة قوية ، وإذا كانت القصة الفنية تكشف لنا هذه الحقيقة الكبيرة من حقائق الحياة بالنسبةللأفراد ، فإن واقع التاريخ يؤكذ هذا المعنى تمام التأكيد في حياة الأمم والشعوب .

وفي تاريخنا القريب نماذج واضحة تثبت لنا استحالة الحياد ، بالمعنى الذي يدعو إليه توفيق الحكيم ، لأن « أحداً » لن يقبل هذا الحياد ، حتى لو قبلناه نحن وارتضينا به ، وهذا النموذج الذي أعنيه يتمثل في موقف مصر من « قناة السويس » خلال المعارك التي قامت بين الانكليز والمصريين سنة ١٨٨٢ ، والتي إنتهت باحتلال الانكليز لمصر ، فعندما جاء الانكليز بأساطيلهم وجيوشهم

لاحتلال مصر في ١١ يوليو من ذلك العام ، تصدت لهم البلاد بقيادة الزعيم الوطني العظيم أحمد عرابي ، وظل عرابي يحارب الانجليز مايقرب من ثلاثة أشهر في مواقع مختلفة ، ومنذ البداية أدرك عرابي أن من الضروري سد « قناة السويس » وكان سد القناة سوف يؤدى إلى منع القوات الانجليزية الآتية من البحر الأبيض عن « طريق بورسعيد » والقوات الانجليزية الآتية من الهند من الالتقاء ، حيث يستحيل عليها الوصول إلى الاسماعيلية من طريق القناة .

وقد كان أحمد عرابي قبل العدوان على مصر يقول في صراحة ووضوح :

« إننا سنحترم القناة مادام العدو يحترم استقلال بلادنا ، ولكن إذا نشبت الحرب ، فإننا عند أول طلقة مدفع سنهدم القناة مؤقتاً ، وسأفعل ذلك آسفاً لأنني أعلم أن القناة طريق محايد » .

هذا ماقاله عرابي قبل أن يهاجم الانكليز مصر ، وهذا ماكان ينوي أن يفعله بعد أن بدأ الهجوم الانكليزي ، ولكن « ديليسبس » المهندس الفرنسي صاحب مشروع «حفر قناة السويس » أخذ ـ بعد بداية العدوان على مصر ـ يرسل البرقيات المختلفة إلى « عرابي » محذراً من إغلاق قناة السويس ، مؤكداً لعرابي أن « القناة » محايدة ، وأن انكلترا لا تستطيع أن تستخدم القناة استخداماً عسكرياً ، وإلا فإن ذلك يعتبر خرقاً لحياد قناة السويس المنصوص عليه في معاهدات دولية ، ولو فعلت انكلترا

ذلك ، أي لو خرقت حياد القناة ، فإن فرنسا سوف تتدخل ضدها عسكرياً ، وهذا نموذج من البرقيات التي أرسلها « ديليسبس » إلى « عرابي » ، ففي إحدى هذه البرقيات يقول للزعيم المصري : « إن الانكليز يستحيل أن يدخلوا القناة » وفي برقية أخرى يقول لعرابي ، كما جاء في مذكرات الشيخ محمد عبده عن الثورة العرابية : « لانشرع فى شىء يمس القناة ، لا يمكر عسكرى انجليزى إلا ومعه فرنساوى ـ أنا مسئول عن كل مايحصل » .

ولم ينخدع عرابى ببرقيات « ديليسبس » وكانت وجهة نظره الأساسية هي أن يغلق القناة في وجه الانكليز عن طريق سدها المؤقت ، ولكنه في آخر الأمر لم ينفذ هذا القرار ، وبقيت القناة مفتوحة ، وقام الانكليز باقتحام القناة عسكرياً ، دون احترام لحيادها ، ولم تتدخل فرنسا لحماية قناة السويس كما ادعى « ديليسبس » .

وقد أخذ المؤرخون على عرابي عدم سده للقناة ، واعتبروا هذا الموقف من بين أخطائه ، وإن كانت الوثائق التى ظهرت أخيرا تكشف أن عدم سد القناة كان أساسا هو رأى « الجمعية العمومية فى مصر » وهى الجمعية التى كانت السلطة العليا فى حكومة الثورة ، وكانت تتألف من « وكلاء الوزارت وكبار الضباط وكبار رجال الدين والأعيان » ، وذلك في فترة الثورة العرابية ، وقد نشر أبو المعاطي أبو النجا ، في « مجلة الهلال ـ اكتوبر ١٩٦٩ » وثيقة عثر عليها في دار المحفوظات بالقلعة ، وهذه الوثيقة هي نص برقية

أرسلتها « الجمعية العمومية » التي كانت تحكم البلاد إلى عرابي ، وتقول البرقية إنه تقرر « باتحاد الآراء عدم الموافقة على إرسال عساكر إلى جبهتي الوادي والصالحية « أي إلى منطقة قناة السويس » لمنع ماعساه يحدث من القيل والقال من أن ذلك من أنواع التهديد للقنال وغير ذلك » .

ويعلق المؤرخ الكبير محمود الخفيف الذي انصف عرابي والثورة العرابية ، انصافاً دقيقاً وذلك في كتابه « أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه» . . علق « الخفيف » على موقف عرابي من قناة السويس وعدم ردمه لها بقوله :

« والحق أن عرابي لم يحجم عن ردم القناة منخدعاً بأقوال ديليسبس ، وإنما كان هناك اعتبار على قدر عظيم من الأهمية يشغل ذهن عرابي ، وهو ماكان يحيط به من ظروف ، كانت تصور « عرابياً وأنصاره » على أنهم عصاة مخربون ، وإن لم يعملوا شيئاً مايبرر هذه التهمة النكراء ، فكيف يكون الحال لو أن « عرابياً » أقدم على ردم القناة ، والمؤتمر الدولي ـ الذي تألف للنظر في المشكلة ـ منعقد في الآستانة » .

هذه هي قصة عرابي مع حياد القناة ، فقد كان هذا الحياد نصا متفقاً عليه بين الدول الكبرى ، وكان « ديليسبس » يعلن هذا الحياد بقوة في برقياته إلى عرابي ، واتجهت الجمعية العمومية ـ في مصر ـ ومعها عرابي إلى الاشفاق من ردم قناة السويس في وجه

الغـزو الانكليزي ، خوفـاً من ثورة الرأي العام العالمي والدول المختلفـة على مصر بتهمة « خرق حياد قناة السويس » . ولكن ذلـك كله لم يكن له جدوى على الاطـلاق ، فاقتحمت انكلترا القناة ، واستخدمتها في غزوها العسكري لمصر ، ولم تحترم حياد القناة بأي صورة من الصور ، ولم تتحرك فرنسا ولاتركيا ولا أي دولة أخرى في سبيل الدفاع عن حياد قناة السويس ؛ لأن أحداً لم يحترم هذا « الحياد » سوى المصريين الذين دفعوا الثمن غالياً ، فاحتلت انكلترا مصر ودخلتها ، واقتحمت قناة السويس دون اعتبار لأي قانون دولي .

وماأكثر النماذج التي تؤكد أن الحياد لاقيمة له أمام القوة الغاشمة عندما تريد أن تنتهك هذا الحياد ، وأن الحياد بالصورة التي يدعو إليهـا توفيق الحكيم ليس أكثـر من هروب من مشكـلات الحياة الحقيقية على طريقـة تلك الشخصية الـروائية ، شخصية « علي خجـا » ذلـك الإنسـان الطيب البسيط الذي تصور أن « دكانه الصغـير » يستـطيع أن يعـطيه الأمـان والسعادة بعيداً عن قنابل الحرب العالمية ومدافعها ، وانتهى الأمر بأن تهدم الدكان على رأس صاحبه الذي مات هو نفسه متأثراً بالدمار الذي أصاب دكانه .

ولقـد ضرب توفيق الحكيم مثـلاً على الحياد السليم بنمـوذج « النمسا » ، وما « النمسا » في الواقع إلا مأساة سياسية معاصرة ، فقد كانت النمسا سنة ١٩٣٨ دولة محايدة ، وكان حيادها مضموناً بضـمانات دولية عديدة ، ومع ذلك لم يمنع هذا الحياد المضمون

« هتلر » من اجتياح النمسا بجيوشه النازية . وضمها إلى ألمانيا بالقوة قبل بداية الحرب العالمية الثانية ، وبالتحديد في مارس ١٩٣٨ ، في عملية سماها أحد المؤرخين باسم عملية « اختطاف النمسا » ولم يتأثر العالم كثيراً من أجل زوال النمسا من الوجود كدولة ، وليس فقط زوال حيادها المزعوم ، فماذا أجدى الحياد على النمسا ، وماذا قدم لها هذا الحياد أمام قوة هتلر وجيوشه النازية ؟ . . .

لا شيء على الإطلاق .

ولقد كانت النمسا ـ من ناحية أخرى ـ في القرن الماضي دولة كبرى لها وزنها وتأثيرها الواسع في السياسة العالمية ، وكانت تضم المجر إلى جانب النمسا نفسها ، وكان وزيرها الأكبر « ميترنيخ » واحداً من مهندسي السياسة الأوروبية والعالمية في القرن التاسع عشر ، ولكن هذا المجد كله زال واندثر بفضل عوامل كثيرة ، كان « الحياد » على رأسها ، فقد أخذت النمسا تتدهور شيئاً فشيئاً ، حتى فقدت نفوذها وبريقها ، واعتصمت بحيادها طمعاً في الأمان ، والخلاص من شرور العالم ومشاكله وحروبه وصراعاته ، فانتهى الأمر بها إلى السقوط في يد هتلر بسهولة متناهية ، وخرجت النمسا من الحرب العالمية الثانية دولة صغيرة محدودة القيمة والتأثير والنفوذ .

وعندنا في الوطن العربي نموذج حي لفكرة الحياد على طريقة توفيق الحكيم ، وهي طريقة « نفض اليد » و « البعد عن

الصراعات » « بحثاً عن المصالح الخاصة » ، هذا النموذج العربي هو نموذج لبنان التي أخذت بنظرية الحياد بعد الحرب العالمية الثانية ، واستمرت تتصرف سياسياً وعملياً في ضوء نظرية « الحياد » هذه لمدة تقترب من ثلاثين سنة متصلة ، وحققت لبنان في هذه الفترة ازدهاراً ملحوظاً وسجلت درجة من التقدم الواضح في مجالات عديدة ، وأصبحت مدن لبنان وعلى رأسها « بيروت » صورة مصغرة من المدن الأوروبية المتلألئة بأضواء الحضارة ، وتحولت بيروت إلى «باريس عربية » ، وامتلأت باريس العربية أو بيروت بطراز متقدم من العمارة الحديثة ، وأخذت في بيئات كثيرة بالعادات والتقاليد الأوروبية ، وعرفت حياة الليل المتلألئة البهيجة المليئة بالحيوية والمتعة والصخب والعنف ، وتحدد حياد لبنان واضحاً جلياً ، فكان حياداً بين البلاد العربية جميعاً بما فيها من أنظمة مختلفة ، وآراء متعارضة ، وكان من ناحية أخرى حياداً بين التكتلات العالمية الكبرى بما فيها من أنظمة مختلفة وآراء متعارضة أيضاً ، وكانت لبنان تصدر صحفاً لكل الأطراف العربية المتناقضة ، ولكل الأطراف العالمية المتناقضة ، وكانت تضم أحزاباً تمثل كل القوى السياسية الموجودة على ظهر الأرض من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار . فماذا كانت النتيجة ؟ هل استطاع هذا الحياد اللبناني أن يضمن شيئاً أو يحقق شيئا بالنسبة للبنان ؟ أبداً . لقد انتهى الأمر بانفجار لبنان وتحوله إلى شظايا صغيرة . وكان الازدهار اللبناني في ظل الحياد يحمل في أعماقه كل عوامل الانفجار ، لأن لبنان لم يكن يعتمد على نفسه ، بل كان مصيره

مرهوناً بأيدي الآخرين ، فإذا أراد طرف من الأطراف المشتركة في تحديد المصير اللبناني تفجير الموقف في لبنان استطاع ذلك في سهولة ويسر ، وعندما حانت اللحظة التي شعرت فيها بعض الأطراف المشتركة في تحديد المصير اللبناني بمصلحتها في أن تنفض يدها من حياد لبنـان اشتعلت النـار في لبنـان ، حيث أحـرقت هذه النار الأخضر في لبنان واليابس ، ولم تنج لبنان من الحرب الأهلية ، ولم يستـطع حيادها أن يكون طوق نجاة بالنسبة لها ولمستقبلها ، ولم يحقق لها هذا الحياد شيئـاً من الأمن والاستقــرار بأي حال من الأحوال . فلا نجاة للأمم والشعوب بل وللأفراد إلا في الالتزام بموقف والانتماء إلى قضية معينة ، ومواجهة المشاكل دون الهروب منها بأوهام سحرية لاتجدي ولاتفيد .

وقد يرى البعض أن لبنان لم تكن دولة محايدة ، بل كانت على الـدوام دولة مرتبـطة بالغـرب والاتجـاهـات الغربية في السياسة والاقتصـاد والحياة ، ولكن الحـديث هنـا يتصل بالوضع اللبناني بصـورة عامـة ، فقـد كانت لنـان بلداً مفتـوحاً لكل الاتجاهات والمواقف ، لايتطرف في الانتماء أو الالتزام باتجاه دون اتجاه .. ، أو كتلة سياسية دون أخرى ، في المجال العالمي أو المجال العربي ، مما أعطاه ـ على الأقل ـ مظهر الحياد والبعد عن التكتلات الصريحة .

ومصر ـ في بعض الفـترات التـاريخية ـ لم تكن بعيدة عن هذا النــوع من الحياد الـذي يدعـو إليه توفيق الحكيم ، وهـو حياد

لاجدوى منه ولا معنى له ولايحظى باعتراف أحد في اللحظات الحاسمة ، ففي السنوات الأولى للحرب العالمية الثانية كانت مصر من الناحية الشكلية دولة محايدة ، ولم تدخل الحرب رسمياً ، في أي جانب من الجانبين المتحاربين « المحور بقيادة ألمانيا ، والحلفاء بقيادة بريطانيا وأمريكا » ، ومع ذلك لم يمنع هذا الحياد الشكلي من قيام الانكليز بكافة أنواع الأعمال العسكرية ضد ألمانيا وإيطاليا من فوق الأرض المصرية ، ولم يمنع هذا الحياد ألمانيا من ضرب الأراضي والمدن المصرية بعنف وقسوة .

وهناك حقيقة ثابتة بعد ذلك كله . هي أن الغزوات التي كانت تتجه إلى هذه المنطقة من العالم وهي التي نسميها اليوم باسم المنطقة العربية كانت تأخذ طريقها في نهاية الأمر إلى مصر ، ؛ ولم تكن تتوقف أبداً عند الحدود المصرية ؛ فقد كانت القوى المعتدية على هذه المنطقة تفكر دائماً في مصر ، وهذا مانجده في حملات الصليبيين على الشام مابين ١١١٨ و ١٢٥٠ ، فإن هذه الحملات لم تتوقف على أبواب سيناء ، بل اتجهت إلى داخل مصر ، ففي سنة ١٢٢١ قام الصليبيون بحملة لاحتلال مصر عن طريق دمياط ، وفي سنة ١٢٤٩ قاموا بحملة أخرى لاحتلال مصر ووصلوا إلى المنصورة ، وانتهت الحملتان بهزيمة الصليبيين ، وتلا ذلك غزوة أخرى من التتار اتجهت إلى حدود مصر الشرقية وانتهت بهزيمة التتار على يد المصريين في « عين جالوت » سنة ١٢٦٠ .

ومغزى هذه الأحداث كلها أن مصر لاتستطيع أن تنفض يدها

من واقع المنطقة المحيطة بها ، وهي منطقة « الوطن العربي » من المحيط إلى الخليج ، فحياد مصر بالنسبة لهذه المنطقة ، وهم سياسي وفكري لا يمكن أن يتحقق ، والعدو الذي يسيطر على أي جزء من الوطن العربي لابد وأن يتجه في نهاية الأمر إلى مصر ، حتى لو أعلنت مصر أنها تنفض يدها من كل شيء ولاتتدخل في أي شيء ، ونحن نذكر في التايخ الحديث عدوان ١٩٥٦ ، الذي اشتركت فيه اسرائيل اشتراكاً ايجابياً فعالاً . ففي ذلك الوقت لم يكن هناك دافع مباشر وعاجل لإسرائيل في أن تحارب مصر ، ولكن الحقيقة هي أن اسرائيل تعتبر مصر وقوة مصر هدفاً أساسياً لها ، ولن ينفع حياد توفيق الحكيم في حماية مصر ، ولن يحقق لها أي أمن أو سلام ، والطريق الصحيح هو أن تكون مصر قوية ، وأن تكون منتمية للأمة العربية انتماءاً كاملاً ، فهذا الانتماء العربي محسوب على مصر ، سواء أعلنت مصر ذلك أولم تعلنه ، والذين يحاربون الوطن العربي يضعون في حسابهم تدمير قوة مصر قبل أي شيء آخر ، وهذا ماكان واضحاً في خطط الصليبيين وخطط التتار وما هو واضح ايضاً في خطط الاسرائيليين الآن .

وعندما كانت مصر تنفض يدها من الصراع الدائر حولها ، أو ترغمها الظروف على ذلك ، بسبب ماقد يصيبها من ضعف في بعض الفترات التاريخية ، فإن مصر في مثل هذه الظروف تتحول إلى ميدان للصراع بين القوى الكبرى في العالم ، وهذا ماحدث في الفترة السابقة على الفتح العربي ، فقد كانت مصر مسرحاً للصراع

بين الفرس والرومان ، وكان الفرس يسيطرون عليها تارة ، والرومان يسيطرون عليها تارة أخرى ، ومنذ أواخر القرن الثامن عشر ومصر مسرح للصراع بين الانكليز والفرنسيين ، ولم تصمد مصر فى هذا الصراع إلا فى فترة حكم محمد على الأولى ، حيث كانت مصر قوية ذات سياسة عربية استقلالية ، ومنذ هزيمة جيش محمد علي في « نفارين » ومصر تعاني آثار الانهيار والهزيمة حتى سقطت في آخر الأمر في يد الانكليز سنة ١٨٨٢ .

وهكذا نجد أن الحياد كما يدعو إليه توفيق الحكيم هو وهم من الأوهام ، وإذا افترضنا أن مصر يمكن أن تقبله ، فإن الاخرين لايمكن أن يقبلوه أو يسمحوا به ، ومهما حاولت مصر أن تنفض يدها من دورها العربي ، فإنها لن تستطيع ذلك ، كما أن مثل هذا الموقف لايمكن أن يجر عليها إلا المشاكل والضياع في كل مجالات الحياة ، وشخصية مصر الحقيقية ، ومصالحها البعيدة المدى ودورها الحضاري تفرض عليها جميعاً طريقاً لارجعة فيه ولاتردد ، هذا الطريق هو طريق الانتماء إلى الأمة العربية . وليست الأمة العربية ، مجرد مجموعة من الحكومات تتفق أو تختلف ، ولكنها شعب ولغة وثقافة وحضارة وموقع جغرافي وسياسي ، ومصلحة عامة ، ومستقبل مشترك . كما أن المشكلات التي تعانيها مصر وهي حقيقة ظاهرة للجميع ، لايمكن علاجها بالهروب وانكار شخصية مصر الأصلية ودورها التاريخي ، والحل الصحيح هو مواجهة أسباب الضعف ، مهما كانت المشاكل والعقبات والمشقات .

ولـو أن الشعـوب فكـرت في أيام الأزمات على طريقة توفيق الحكيم ، فخلعت ثيابهـا الحضـارية ، وغـيرت دورها ورسالتها وموقفها التاريخي ، لكان ذلك من شأنه أن تكون الأزمات سبباً للدمار والانهيار بالنسبة لشعوب كثيرة ، ويكفي أن نذكر مثلاً يعرفه الجميع ، فقد تعرضت فرنسـا للاحتلال الألماني سنة ١٩٤٠ ، وكان من رأي بعض أبنائها « مثل الماريشال بيتان » التفاهم مع الألمـان الغـزاة ، إنقـاذاً لفـرنسـا من الدمار ، ولكن آخرين من الفرنسيين بقيادة « ديجول » رأوا أن الاستسلام للألمان هو الانهيار الحقيقي لفـرنسا ، وكافحت فرنسا وتحملت نصيبها من العذاب والمقـاومة حتى انتصرت أخيراً ، ووقفت على أقدامها ، ولم تقبل « طريق بيتـان » السهـل الـذي يدعـو إلى الاعـتراف بالـواقـع والاستسـلام لمشـاكله ، وإذا كنا نعتبر وطنية توفيق الحكيم فوق الشبهـة والشك ، فإن الذي لاشك فيهْ أن الطريق الذي يريده لمصر هو نوع من الاستسـلام لمشـاكلهـا ، والخـلاص منهـا ، لابمعـالجتها معالجة عميقة ، وإنما بالاحتماء في دكان صغير مثل « دكان علي خجا » ، ودكان توفيق الحكيم هو الحياد ، وهو دكان لايحمل نجاة أو عافية أو أملاً من آمال الحياة والأمن والاستقرار . . إنه فردوس خيالي وزائف ولا أمان فيه .

عروبة مصر وحياد الحكيم ـ ٢ ـ
مصر ليست « موناكو » !

يبرر الكـاتب الكبـير توفيق الحكيم دعـوتـه إلى حياد مصر « الأهـرام ٣ مارس ١٩٧٨ » بأن هذا « الحياد » يفـرضـه الموقع الجغرافي لمصر ، من حيث هي صاحبة قناة السويس التي يجب أن تظل مفتوحة دائماً لخير العالم كله ، لا أن تتعرض للإغلاق بين حين وحين ، فيصاب العالم من جراء إغلاقها بالأزمات الاقتصادية ، ثم يفرضها أيضـاً الوضع الحضاري لمصر ، فهي الوحيدة في الدنيا التى تعتـبر ـ بحق ـ متحف العـالم ـ . لأن فيهـا آثـار الحضارات مجتمعة : فيها آثار الفراعنة ، والاغريق ، والرومان ، والمسيحية والإسـلام . . . في حين أن بلداً مثـل اليونـان يفخر بوجود آثار حضارة واحدة هي الاغريق ، وأن بلداً مثل أسبانيا يزهو بحضارة العـرب . . وبـذلـك كانا في مقدمة البلاد السياحية ، أما مصر فالذي يأتى إليها يجد جواً فريداً في الدنيا بنسماته وشمسه اللطيفة طول السنة ، ومتحف العالم القائم فيها بكل آثار الحضارات على مراحل التاريخ مجتمعة في دولة واحدة » .

هذه هي خلاصة وجهة النظر التي يقدمها توفيق الحكيم ، وخلاصة فهمه لدور مصر في هذه المرحلة من التاريخ .

وإذا أردنا أن نحدد الوظائف التي يرى توفيق الحكيم أنها مناسبة لمصر كما يراها ويتصورها بناء على كلماته السابقة ، فسوف نجد أنه يدعو إلى أن تهتم مصر بالسياحة ، والآثار ، وأن تهتم بتحصيل رسوم قناة السويس ، ولاتدخل بعد ذلك في قضية أو مشكلة ، ولاتربط نفسها بما يجري حولها من صراعات وخاصة في « الوطن العربي » .

ووجهة نظر توفيق الحكيم على هذا الأساس تلغي ـ عملياً ـ دور مصر « الحضاري » وتجعل منها مجرد « كازينو » للعالم كله ، يستمتع به ، وبجوه الجميل وآثاره التاريخية ويمر من قناته ولاشيء بعد ذلك .

وهذه الصورة لايمكن أن تتلاءم على الإطلاق مع شخصية مصر الحقيقية وظروفها المختلفة .

إن قناة السويس ـ التي يرى فيها توفيق الحكيم مبرراً لحياد مصر ـ قد ظهرت على الخريطة المصرية منذ سنة ١٨٦٩ ، أي منذ مائة وعشرين سنة تقريباً ، وليست هذه السنوات بأفضل المراحل في تاريخ مصر ، فمصر ذات حضارة قديمة زاهرة ، هي في نظر الباحثين أول حضارة عالمية ، ويبلغ عمر هذه الحضارة ستة آلاف سنة أو يزيد . فهل تغير مصر « وظيفتها الحضارية » و « رسالتها

في المجتمع الإنساني » لمجرد ظهور القناة صاحبة العمر القصير بالنسبة لعمر الحضارة المصرية ؟ لقد ساهمت مصر في الحضارة الإنسانية مساهمات واسعة قبل حفر قناة السويس بآلاف السنين ، وفي الفترات المزدهرة من تاريخ الحضارة المصرية ، كانت مصر دائماً تقوم بدورها في المنطقة المحيطة بها ، وكانت مصر تستطيع أن تتحرك خارج حدودها ، بجيوشها ومعتقداتها وثقافتها ، وكانت مصر تستطيع أن تصد الغزاة أو ترد عليهم ، وكانت تستطيع أن تهضم الثقافات العالمية الحية وترفض التفاهات والقشور ، ولم تكن أبداً في عصور القوة والازدهار « محايدة » تتفرج على مايدور حولها من صراع دون أن تتدخل فيها ، ولايمكن أن نتصور أن أمة من الأمم تستطيع أن تبني نفسها بغير الجهود المتصلة ، والمعارك الكبيرة المختلفة ، وهذا مبدأ ينطبق على كل أمة لها شأن في تاريخ الحضارة ، بصورة عامة ، وينطبق على مصر بصورة خاصة ، فمصر لم تستطع أن تنهض وتتقدم ، في أي عصر من العصور ، إلا إذا اتخذت موقفاً حازماً من مشاكل الدنيا ، ومن الصراعات التي تدور حولها ، ولايمكن أن تكون « قناة السويس » سببا كافياً لتغيير موقف مصر الحضاري ، فتجعل منها أمة غير منتمية إلى شيء ، غير ملتزمة بشيء ، لادور لها إلا أن تقول لكل العابرين على أرضها أو المسافرين فوق مياهها « أهلاً وسهلاً » ثم تأخذ منهم أجر المرور في القناة أو أجر الإقامة في الفندق وينتهي الأمر عند هذا الحد .

وإذا كانت القناة قد زادت من أهمية الدور المصري في هذه

المنطقة من العالم ، فإن ذلك لم يخلق وضعا جديدا لمصر ولكنه كان تأكيدا لشيء قديم سابق وثابت هو رسالة مصر الحضارية التي تقوم على الانتماء العميق لما حولها ، والعمل الدائم على حسم الصراعات التي تدور في هذه المنطقة التي نسميها الآن باسم « الوطن العربي » ، وذلك في سبيل استقلال مصر ، والوطن العربي كله ، وفي سبيل حماية هذه المنطقة من أعدائها الذين لايريدون لها قوة ولانمواً ولاحضارة من أي نوع .

ويستند توفيق الحكيم في دعوته الحيادية إلى حجة غريبة هي حجة الموقع الجغرافي لمصر ، حيث أن الموقع في نظره ، يفرض عليها الحياد الذي يمكن أن يقبله الجميع ويرتضوه ويمتنعوا عن المساس به .

والحقيقة أن « الموقع الجغرافي » بالذات ليس حجة صالحة للحياد الذي ينادي به توفيق الحكيم ، وهو الحياد الذي يدعو إلى نفض اليد من المشاكل والصراعات المختلفة من حولنا ، بل إن الموقع الجغرافي ، على العكس . يفرض على مصر الالتزام برأي وموقف محدد واضح ، فيما يدور حولها من صراعات ، ومايواجه هذه المنطقة العربية من مشاكل .

وتاريخ مصر القديم يعطينا نموذجاً واضحاً في هذا المجال . وبالطبع فإن مصر الحديثة قد تغيرت في جوانب كثيرة عن مصر القديمة ، ولكن المبدأ الذي يحكم حركة مصر يظل واحداً منذ

أقدم العصور إلى اليوم ، وهو أن التزام مصر بموقف محدد فيما يدور حولها من أحداث أمر لابد منه إذا أرادت مصر أن تحمي نفسها وتحقق مساهمة صحيحة في مجال الحضارة . ويحدثنا الدكتور حسين مؤنس عن هذا المعنى العميق في موقف مصر الحضاري فيقول في كتابه « مصر ورسالتها ـ ص ١٢ ومابعدها » :

« كنا ونحن صبيان نقرأ مايقدم لنا من تاريخ بلدنا في القديم ، ونمر سراعاً بعبارة تقليدية في تاريخ كل فرعون تقول « وقاد حملة إلى سوريا وهزم البدو الليبيين وغزا النوبة » ، وكنا نحسبها مجرد عبارة تقليدية يضعها المؤلفون في نهاية أعمال كل ملك من ملوك مصر القديمة لاستكمال شكليات لابد منها ، فلما تقدمنا مع هذا الدرس ، وزاد إدراكنا للتاريخ ، أدركنا أن هذه العبارة إنما هي تاريخ مصر كله ، لأن كلا من الفراعنة كان عليه أن يؤدي ضريبة الموقع الجغرافي ، ويحفظ مصر بهذه الحملات شرقاً وغرباً وجنوباً ، لأن هذه الحملات لو توقفت حيناً لوقعت مصر بين أيدي الأعداء ، فأوقفوا تاريخها وكتبوا على ثراها تاريخهم ، وهو ما حدث مراراً ، خلال فترات طويلة من تاريخنا الطويل ، وأضاع علينا ثمرات ذلك الموقع الجغرافي خلال فترات طويلة من تاريخنا في الأعصر الماضية ، ولايتصور فداحة الثمن الذي اشترت به مصر هذا الموقع إلا من درس تاريخ مصر القديم دراسة تفصيل وتعمق ، لأن هذا التاريخ الذي يبهر العين برواء الحضارة ، ولألاء الصناعة وبدائع الفن وروعة المنشآت ، لم يقم إلا بدماء الذين

ذادوا العدا عن الوادي ، وحفظوه لأهله وأتاحوا للصانع أن يصنع وللمفتن أن يسترسل في فنه وللمنشىء أن يبدع مايشاء ، وأنت لاتخطو مع التاريخ المصري خطوة إلا لمحت ضرام المعارك على الحدود وأحسست أنها ضرورة ملازمة لاغنى عنها لهذا التاريخ » .

هذا هو مايقوله الكاتب المؤرخ الدكتور حسين مؤنس وهو قول صحيح يستند على حقائق التاريخ الثابتة ، والمغزى الذي نخرج به من هذه الكلمات هو أن مصر إذا نفضت يدها مما حولها ، فإن الآخرين « لايمكن أن يتركوها في أمان » ، بل انهم ينقضون عليها دون أي اعتبار أو اهتمام بأي دعوى يمكن أن تعلنها مصر مثل دعوى الحياد التي ينادي بها توفيق الحكيم ، ذلك لأن التحكم بالموقع الجغرافي لمصر هو مطمع دائم للقوى المختلفة التي تعمل في مجال الحضارة العالمية قديماً وحديثاً .

ولابد لنا بالطبع أن نفرق هنا بين تاريخ مصر القديم الذي كان يقوم على المعارك المختلفة على حدود مصر ، بل كان أحياناً يقوم على معارك داخل مصر نفسها مثل الحملات التي كانت تتوجه إلى أبناء النوبة ، أو المعارك التي كانت تقوم بين الصعيد والدلتا من أجل توحيد مصر في دولة واحدة ، ومجتمع واحد ، وبلد واحد . . هذا التاريخ القديم يختلف في نقطة جوهرية ، عن تاريخ مصر بعد الفتح العربي ، أي منذ مايقرب من ألف وأربعمائة سنة ، فقد أصبحت مصر منذ ذلك التاريخ مركزاً للحضارة العربية ، وأصبحت رسالتها هي احتضان هذه الحضارة والعمل على تطويرها

ثم العمل على حمايتها من الغزوات الكبرى التي كانت تهدف للسيطرة على المنطقة كلها والقضاء على شخصيتها ، وفرض شخصية جديدة عليها تخدم المستعمرين وتتلاءم مع مصالحهم وأهدافهم .

ولكي يكون حديثنا مرتبطاً بوقائع تاريخية محددة واضحة فإننا نذكر هنا موقف مصر في أواخر العصر الفاطمي ، حيث أهملت مصر في هذه الفترة مايجري على حدودها الشرقية في الشام ، وانصرفت تماماً عن الاهتمام بالصلة الوثيقة التي كانت قائمة بينها وبين الشام من قبل ، وهنا اجتاح الصليبيون الشام وسيطروا عليها ، وبدأوا يستعدون للسيطرة على مصر نفسها ، ويمكننا أن نقرأ وصفاً دقيقاً لهذه المرحلة في كتاب الدكتور حسين مؤنس الذي سبقت الإشارة إليه وهو « مصر ورسالتها » حيث يتضح لنا : أن غياب « دور مصر » في هذه المنطقة يؤدي - دائماً - إلى كوارث واضحة أليمة لبقية الوطن العربي ، ثم لمصر نفسها بعد ذلك ، ومافكرة « الحياد » كما ينادي بها توفيق الحكيم إلا نوع من التخلي عن رسالة مصر كما حدث في أواخر العصر الفاطمي . . . يقول حسين مؤنس في كتابه « ص ٩١ » :

« كانت مصر قد أغمضت عينها عن الشرق فترة من الوقت في أواخر العصر الفاطمي ، فلم تكد تفعل حتى تهدمت الجبهة الشرقية ، وصارت حطاماً ، وتقسم بلادها الحكام والطامعون ، فصار في كل بلد كبير من بلاد الشام وفلسطين والعراق ، حاكم

بأمره يغازي جيرانه ويعاديهم ، وتراجعت حدود مصر الشرقية حتى وقفت عند عسقلان على شاطىء فلسطين ، وفي أثناء هذا السبات الذي استولى على مصر نزل الصليبيون الشام فلم يجدوا من يردهم ، ومـاهي إلا سنوات حتى تقاسموا معظم أراضيه ممالك ، وحولوه إلى إمارات صليبية . . . » .

ويقول الدكتور مؤنس بعد ذلك : « ثم استيقظ المسلمون وأخذوا يجمعون قواهم لدرء الخطر الداهم ، وقد بدأت اليقظة في الموصل على يد حكامها وكانوا يعرفون بالأتابكة ، وأسعفهم الحظ برجال من خيرة من أطلع العالم الإسلامي ، ثم انتقل مركز القيادة الإسلامية من الموصل إلى مصر ، وتولاها صلاح الدين الأيوبي ، ولقد تعودنا أن نرد بطولة صلاح الدين إلى شخصه فحسب ، دون أن ندخل العالم المصري الذي جعله ذلك البطل العظيم ، ولو أن صلاح الدين اعتمد على ملكاته وحدها لما وفق إلى أكثر مما وفق إليه نور الدين زنكي ، وهو الذي رد من موقعه في الموصل إمارتي الرها وطرابلس من الصليبيين ، لأن نور الدين لم يكن أقل عبقرية من صلاح الدين ولكن مصر كانت مع هذا الأخير ، فكان ماكان من توفيقه العظيم ، ذلك أن مصر قاعدة عظمى ، ومركز توازن من الطراز الأول ، من يستقر فيه يكسب شيئاً عظيماً بمجرد هذا الاستقرار . مثل مصر في ذلك مثل الربوة العالية من ملكها فقد ساد الميدان كله ، ومن لم يملكها ظل الأمر خارجاً عن يده ، ولو ملك كل شبر من الأرض عداها . ومن هذه القاعدة استطاع

صلاح الدين أن يمسك بزمام الموقف ويوجه قوى الشرق كلها ، فلم يلبث أن اقتلع جذور الصليبيين ، ومعنى هذا أن الشرق لم ينج من الصليبيين إلا بفضل التفات مصر نحوه ، وهو لم ينج منهم وحدهم ، بل نجا أيضاً من المغول لهذا السبب عينه » .

ونستطرد قليلاً مع الدكتور حسين مؤنس لنرى المنظر التاريخي بوضوح كامل ، حيث تنهار المنطقة العربية ـ عادة ـ إذا انسحبت منها مصر ، وتنجو إذا ارتبطت بها مصر واتحدث معها اتحاداً عضوياً سلبياً ، والعكس صحيح أيضاً في هذا « المنظر التاريخي » العام ، فعندما تنهار تلك المنطقة التي نسميها بالوطن العربي ، فإن مصر نفسها لاتلبث أن تنهار ، وإذا كانت معركتنا مع الصيلبيين تكشف لنا عن المعادلة الصحيحة للانتصار على أي عدو ، هذه المعادلة التي تؤكد أن هذا الانتصار هو ثمرة الارتباط العميق بين مصر وبين ماحولها من البلاد مما نسميه الآن باسم الوطن العربي . . . إذا كان هذا هو سبب النهوض والنصر ، فإن الهزيمة تأتي من انفصال مصر عن المنـطقـة العربية ، ووقوفها موقفاً مشابهاً لما يدعو إليه توفيق الحكيم من « الحياد » والابتعاد .

وهذا هو أحد مناظر الهزيمة التاريخية للمنطقة العربية ومن بينها مصر ، عنـدمـا قام العثمانيون باحتـلالهم للمنطقة احتلالاً دام مايقـرب منن خمسـمائـة سنـة . . . يقول الدكتور مؤنس « مصر ورسالتها ص ٩٣ » :

« حدث أن أهملت مصر الجبهة الشرقية في أواخر عصر المماليك ، إذ كانت هممهم قد فترت فاكتفوا بعد أيام السلطان قايتباي ، أي بعد ١٤٩٦ ، بأقل الجهد في بلاد الشام ، وفسدت طبائع المماليك ، وداخلت الخيانة قلوبهم ، فضعفت قبضة مصر على الشام ، وكانتا دولة واحدة . وفي ذلك الحين التفت الأتراك العثمانيون إلى الشرق يغزون بلاده واحدة فواحدة ، ولم يقدر المماليك الخطر العثماني قدره الصحيح ، فكانت النتيجة أن وقع هذا الشرق العربي كله في يد العثمانيين ، وسقطت مصر نتيجة لذلك أيضاً ، ولو أن التفات مصر لأمور اشرق ظل كما كان أيام المماليك الأوائل ، فأغلب الظن أن سلاطين بيت عثمان ماكانوا ليطمعوا في هذا الشرق العربي وماكانوا ليتجهوا إليه ، فقد كان اتجاههم ـ منذ ظهروا على مسرح التاريخ ـ غربياً يمضي بهم نحو التوسع في الغرب ، ومالفتهم إلى الشرق إلا مالاحظوه من ضعفه ، وهو لم يضعف إلا عندما انصرفت عنه مصر » .

وهذا النموذج الذي يقدمه الدكتور مؤنس يؤكد لنا الحقيقة التاريخية الثابتة ، وهي أن مصر وبقية الوطن العربي مرتبطان ، وأن انسحاب مصر من الارتباط بالعرب ، أو حيادها بين العرب وأعدائهم معناه الوحيد هو سقوط البلاد العربية في يد الأعداء ، ثم سقوط مصر بعد ذلك كنتيجة طبيعية وأثر مباشر .

ولنستطرد مرة أخرى في النظر إلى سياسة « صلاح الدين » عندما كان يحكم مصر ، وهي السياسة التي كان من ثمارها انتصار

العـرب جميعاً ، والمصريين في مقدمتهم ، على الصليبيين ، ولو تأملنا سياسة صلاح الدين بشيء من التفصيل لاكتشفنا بوضوح علمي تام أن حياد مصر في المنطقة العربية لانتيجة له إلا الكوارث والنكبات ، وهذا ما أدركه صلاح الدين فرفض الانعزال في مصر وحدها بعيداً عما يدور حولها من صراعات ومشاكل .

وهـذه نظرة دقية أخرى على سياسة صلاح الدين في مصر ، يقدمها إلينا الدكتور حسين مؤنس أيضاً في كتابه « مصر ورسالتها ص ٩٥ » يقول الدكتور مؤنس :

« ربما كان ذلك العبقرى صلاح الدين أعظم من تنبه إلى أهمية موقع مصر في العصور الوسطى ، فبعث من يستطلع له الأحوال في برقة وبعث من يمهد له أمر النوبة ، بل مد بصره إلى اليمن ، أي أنه تصور موقع مصر جيداً ، ونظر في كل وجهة ، وهي يقظة عجيبة منه ، يزيد في قدرها أن بصره ترامى إلى قاصية هذا البحر « الأبيض المتوسط » في الغرب ، فبعث إلى خليفة الموحدين « في المغرب العربي » يعرض عليه أن يتعاونا في القضاء على الصلبيين ، وانتزاع سيادة البحر من أيديهم ، ولم يوفق المشروع ، ولكن ذلك لايقلل من قيمة هذا التفكير الفريد ، وهو يدل على أن رجلاً واحداً فقط من بين العشرات الذين حكموا مصر خلال العصور الوسطى قد تفطن إلى معنى موقعها ، وفكر في الإفادة منه ، وليس بالغريب أن يكون هذا الرجل : صلاح الدين » .

وهكـذا نجـد أن موقع مصر الجغرافي الذي يتخذ منه توفيق الحكيم حجة للدعوة إلى حياد مصر ، هو نفسه بالأدلة التاريخية القاطعة ، قبل الفتح العربي وبعد الفتح العربي إلى اليوم . . هذا الموقع الجغرافي هو من أكبر العوامل التي تفرض على مصر الانتماء ولا تسمـح لها بالانـطواء على نفسهـا ، فالانـطواء يؤدى بها إلى العزلة ، وعدم التأثير ، وينتهي بها إلى الانهيار ، والسقوط في أيدي الغزاة ، ويحرمها من أداء دورها الحضاري بالنسبة لنفسها وبالنسبة للمنطقة العربية بل وللعالم كله .

ولاشـك أن جوهـر التفكـير السياسي عنـد صلاح الدين هو ماينبغي أن تبني مصر عليه موقفهـا السياسي والحضـاري في كل العصور والأحوال . . فإذا انطوت مصر انهزمت وذبلت ، وتدهور إنجـازهـا الحضـاري ، وإذا انتمت ازدهـرت وتألقت وانتصرت واستـطاعت أن تلعب دورهـا الحضـاري العظيم ، وكل فترات التـدهـور في تاريخ مصر هي فترات انطواء وعزلة ، وكل فترات الازدهار والتقدم هي فترات انتماء للمنطقة وارتباط عميق بمصير هذه المنطقة .

نتـوقف بعـد ذلـك عنـد تشبيه توفيق الحكيم لمصر بالنمسـا وسـويسرا ، حيث يدعـو الحكيم الى حياد مصري يشبـه الحياد النمساوي والحياد السويسري ، ولست أدري كيف يجوز لنا أن نقارن بين مصر من جانب وسويسرا والنمسا من جانب آخر ، إن سويسرا والنمسا ولاشك متقدمتان على مصر في الوقت الراهن ،

من حيث الأخذ بأساليب الحضارة العصرية ، ولكن مصر شيء والنمسا وسويسرا شيء آخر ، ويكفي أن نسجل هنا بعض الفوارق :

فمصر - من ناحية - بلد عمره أكثر من ستة آلاف سنة « حضارية » وهي مهد أقدم حضارة عرفتها الإنسانية مادياً ومعنوياً ، والحضارة المادية ماثلة في الآثار التي لاتزال بقاياها موجودة إلى اليوم مثل « الأهرام ومعبد الكرنك » وغيرهما ، ولاحاجة بنا للحديث عن هذا الجانب لوضوحه ، ومعرفة الجميع به ، أما الجانب المعنوي في هذه الحضارة فيكفينا لكي ندرك خطورته أن نقرأ هذه الكلمات من كتاب « فجر الضمير الإنسانى » للعالم الأمريكي « بريستد - ترجمة سليم حسن » حيث يؤكد هذا العالم أن القيم الأخلاقية الإنسانية قد تكونت لأول مرة في حياة البشر في مجتمع مصر القديم ، ويتغني العالم الأمريكي بالمصريين « البدائيين » الذين كانوا يعيشون على ضفاف النيل منذ آلاف السنين من الصيادين السذج في مساكنهم الصغيرة المصنوعة من الطين والخوص » والذين استطاعوا أن يتحولوا في مصر « إلى مجتمع عظيم يسيطر عليه رجال ذوو سلطان ، وخيال واسع وأصحاب آمال ضخمة ، أحرار لم تغل أيديهم التقاليد ، فعمرت تلك البقاع التي كانت يوماً غابة ، ولم يكتفوا بنشر هذه الآثار فيها على طول النهر وعرضه ، بل أدركوا كذلك المعنى السامي لقيم الأشياء الاجتماعية والأخلاق البعيدة عن الأنانية ، مما لم ينبثق فجره على

العالم من قبل ، وإن الذى يعرف قصة تحول صيادي عصر ماقبل التاريخ في غابات النيل إلى ملوك ورجال سياسة وعمارة ومهندسين وصناع وحكماء وأنبياء اجتماعيين في جماعة منظمة عظيمة ، مشيدين تلك العجائب على ضفاف النيل ، في وقت كانت أوروبا تعيش في همجية العصر الحجري . ولم يكن فيها من يعلمها مدنية الماضى .. من يعرف كل هذا يعرف قصة ظهور أول مدنية على وجه الكرة الأرضية تحمل في ثناياها صوراً خلقية ذات بال .

فالمدنية في أعلى معانيها قد ولدت في الركن الجنوبي الشرقى في البحر الأبيض المتوسط ـ أي في مصر » .

هذا مايقوله العالم الامريكي الكبير « جيمس هنري بريستد » عن مصر .

مصر هذه ، هل يجوز لنا أن نقارنها بالنمسا وسويسرا وهما دولتان حديثتان في تاريخ الحضارة حتى بالنسبة لأوروبا نفسها ، وليس لأي منهما تراث حضاري يمكن مقارنته بأي حال من الأحوال بمصر ؟ !

وإذا تركنا هذا الجانب التاريخي ونظرنا إلى الواقع ، فسوف نجد أن مصر تعتبر الآن مركزاً للحضارة العربية بتراثها وثقافتها ، ومستوى مصر الحضاري يؤثر تأثيراً كبيراً على ماحولها من الدول والبلدان العربية . فهل تعتبر النمسا أو سويسرا مركزاً للحضارة الأوروبية والثقافة الأوروابية والتراث الأوروبي ، على العكس ،

فالنمسا وسويسرا ليس لهما تأثير على ماحولهما في هذا المجال ، بل إنهما في معظم الأحوال بلدان يتأثران بما يجري حولهما في بقية البلدان الأوروبية الأخرى من حركة فكرية وثقافية وحضارية .

ومن هنا فلا مجال على الإطلاق للمقارنة بين مصر من ناحية والنمسا وسويسرا من ناحية أخرى ، لا من حيث التاريخ القديم ولا من خيث التأثير المعاصر ، ومهما بدا لنا أن النمسا وسويسرا متقدمتان في العضر الحاضر على مصر ، فإن هذا التقدم جقيقي في مظاهر الحضارة ، ولكنه ليس صحيحاً من حيث التأثير الثقافي والسياسي والحضاري بشكل عام .

وهذا كله يكشف لنا حقيقة دور مصر ورسالتها وموقعها ، فهي لاستطيع أن تنفصل عن شخصيتها العربية ، ولاتستطيع أن تنفض يدها من المنطقة العربية ، ولاتستطيع أن تتخلى عن مواصلة دورها الحضاري والسياسي في توحيد هذه المنطقة العربية ، وفي نهضتها والدفاع عنها ضد الغزوات المختلفة ، ومنها الغزوة الصهيونية الراهنة ، وهي تشبه في خطرها ، غزوة الصليبيين ، وغزوة التتار في العصور السابقة من التاريخ .

ولايمكن لمصر أن تتوقف عن دروها في الإبداع الحضاري ، وفي العمل على استكمال مافات المنطقة كلها من مراحل التقدم ، ولايمكن أن تكون مصر محايدة على طريقة توفيق الحكيم ، فمثل هذا الحياد كما يقول لنا التاريخ هو هروب من المسئولية الحضارية

التي تتحملها مصر ، والهروب لاينجي ولايفيد ولايحل أي مشكلة من المشكلات ، والتفكير الدقيق والصحيح في وضع مصر وتاريخها يؤكد لنا أن الحياد كما يقصد إليه الحكيم لن يؤدي إلا إلى ضياع الوطن العربي ومصر معه ، وأنه ليس لمصر إلا أن تكون عربية ، منتمية إلى الأمة العربية ، مرتبطة بالمصير العربي كله ، وليس أمامها إلا أن تأخذ هذا الانتماء بمنتهى الجدية ، وتعمل على تعميقه وتأصيله ، وفي ذلك وحده تكون نهضتها وتقدمها وخلاصها وممارستها لدورها الحضاري الصحيح ، هي وبقية أجزاء الوطن العربي في كل مكان وفي مختلف الجبهات وأمام كافة المشاكل والصعوبات .

إن الأمم التي تستسهل الاستسلام للعواصف ، لاتنجو أبداً ، أما الأمم الناجية حقاً ، فهي تلك التي تواجه هذه العواصف وتحاول السيطرة عليها وحماية نفسها منها وبناء السدود في وجهها . . وهذا هو طريق مصر الوحيد ، ومهما بدا هذا الطريق صعباً فهو طريق الأمان والسلامة ، أما مايدعو إليه توفيق الحكيم من حياد سلبي فلا معنى له إلا أن تتحول مصر إلى كازينو وفندق وشقة مفروشة ويد ممدودة تجمع رسوم المرور في قناة السويس ورسوم السائحين الذين يجيئون للاستمتاع بآثار مصر وشمسها الجميلة ، وهذه الوظائف كلها في مجموعها يمكن أن تخلق دولة مثل « موناكو » لا دولة مثل مصر تعمل منذ آلاف السنين من موقعها الصعب الفريد ، من أجل الابتكار والإبداع والمساهمة الحقيقية في حضارة الإنسان والإضافة إلى هذه الحضارة .

والمصريون لايمكن أن يكونوا أبداً مثل الهنود الحمر ، هؤلاء الـذين وجدوا سعادتهم في العزلة والابتعاد عما يجري في العالم ، قانعـين بالنعيم الذي كانوا يعيشون فيه ، فانتهى أمرهم بهجوم حضاري عنيف ، هب عليهم كالصاعقة من أوروبا ، فاقتلعهم من أرضهم وأحل محلهم شعوباً جديدة . ذلك موقف لايمكن أن يحمي زرعـاً ولاثمـراً ولا بشراً ، ولايمكن أن يؤدي إلى نتـائـج حضارية سليمة ، والتاريخ واضح أمامنا كل الوضوح ، فإما أن تنتمي مصر وتعـرف مكـانها ورسـالتها ودورها الكبير ، وإما أن تنطوي وتنعزل فتضع نفسها في طريق مسدود ليس بعده إلا الضياع .

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

كتب أخرى للمؤلف

١ ـ فى أزمة الثقافة المصرية .
٢ ـ أبو القاسم الشابى ـ شاعر .
الحب والثورة ـ دراسة ومختارات .
٣ ـ تأملات فى الإنسان .
٤ ـ فى أضواء المسرح .
٥ ـ ثورة الفقراء .
٦ ـ أدباء معاصرون .
٧ ـ مقعد صغير أمام الستار .
« دراسات فى النقد المسرحى » .
٨ ـ أدباء ومواقف .
٩ ـ أصوات غاضبة فى الأدب والنقد .
١٠ـ كلمات فى الفن .
١١ـ محمود درويش شاعر الأرض المحتلة .
١٢ـ بين أنور المعداوى وفدوى طوقان ـ صفحات مجهولة فى الأدب العربى المعاصر .
١٣ـ الانعزاليون فى مصر ـ رد على لويس عوض وتوفيق الحكيم وآخرين .
١٤ـ أدب وعروبة .

تحت الطبع :

١ - كفاق شاعر الإنسانية .
٢ - دفاع عن طه حسين .
٣ - أزمة الثقافة فى مصر .
٤ - بصراحة أدبية .
٥ - أدباء ومواقف - الجزء الثانى .
٦ - أدباء ومواقف - الجزء الثالث .
٧ - مع الرواية العربية .
دراسات نقدية .
٨ - هل كان العقاد شاعرا ؟
٩ - شخصيات وقضايا مسرحية .
١٠- سينمائيات .
١١- كتابات فى الغربة .
١٢- بين السياسة والثقافة .